الجهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

السجن في روايات الكيلاني "ليل وقضبان" أنموذجا.

من متطلبات شهادة الماستر في الأدب الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:

إيمان عاشوري.

إشراف الأستاذ:

د.علي محدادي.

السنة الجامعية: 2017-2018م/1439هـ

الجهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

السجن في روايات الكيلاني "ليل وقضبان" أنموذجا.

من متطلبات شهادة الماستر في الأدب الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:

إيمان عاشوري.

إشراف الأستاذ:

د.علي محدادي.

السنة الجامعية: 2017-2018م/1439هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ

وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ

وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ

وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

[آل عمران 140]

شـكر وعـرفان

الحمد لله على ما أنعم بـه عليَّ من نعم عديدة، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأهل السيادة والوفا، أما بعد..

واقتداءً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله" فإني أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف علي محدادي الذي سار معي ووجهني بعد الله سبحانه وتعالى في عملي هذا، والذي قد اقتطع من وقته الثمين الشيء الكثير، ولم يبخل عليَّ بتوجيهاته ونصائحه القيمة، وعلى صبره معي وعليَّ، وأن كان لي خير معين من بعد الله عز وجل، والذي كان نعم الأستاذ والموجه لي، والله وحده الكفيل بتوفيقه وجزائه.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم ومدَّ يد العون لي، ولم يبخل عليَّ ولو بكلمة طيبة في إتمام هذا العمل، وقد منَّ الله عليَّ بكثير منهم؛ أولئك الذين أخجلوني بحرصهم وسؤالهم، فكانوا لي خير سند.

الإهـداء

أهدي هذا العمل إلى الذين طالما شعرت اتجاههم بالتقصير...

إلى والديَّ اللذين لولا فضل الله، ثم دعاؤهما لي لما أتممت هذا العمل...

إلى أهلي جميعا...

وإلى كل من كان لي سندا وملجأ عند حاجتي...

إلى أولئك الذين آزروني في ساعة يأس مني وزرعوا في نفسي بذور الأمل...

إلى كل من عذرني حين تقصيري...

وإلى أولئك الذين كانوا لي النور في عتمة دربي أهلي وأصدقائي...

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
المقدمة.	**أ-ب**
تمهيد: عن السجن والكيلاني.	**01**
1- السجن مدخل معجمي.	**03**
2- السجن في حياة الكيلاني.	**07**
الفصل الأول: مظاهر السجين في أعمال الكيلاني.	**24**
1- السجين السياسي (**حكاية جاد الله، في الظلام، رجال وذئاب، عمر يظهر في القدس).**	**27**
2-السجين العادي (**حارة اليهود، ملكة العنب).**	**39**
3- السجانون.	**43**
الفصل الثاني: تجليات السجن في رواية "ليل وقضبان".	**46**
1-هذه الرواية والسجن.	**48**
- ملخص الرواية.	**48**
- السجن موضوعا لهذه الرواية.	**51**
2-السجناء في رواية "ليل وقضبان".	**56**
-السجين الرئيسي في الرواية.	**57**
-باقي السجناء.	**63**
3-طاقم السجن.	**67**
الفصل الثالث: بنية المكان والشخصيات في رواية "ليل وقضبان".	**72**
1- بنية المكان.	**74**
-المكان في رواية "ليل وقضبان".	**76**
-تمظهر المكان في الرواية.	**80**
2- بنية الشخصيات.	**83**
-الشخصيات في رواية "ليل وقضبان".	**84**
-مظاهر الشخصية ومقوماتها.	**88**
الخاتـمة.	**94**
قـائمة المصادر والمراجع.	**98**

المـقدمـة

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

بعد أن كان الشعر ديوانا للعرب يصور لنا جوانب الحياة باختلافها، ويشهد أهم محطات حياتهم ليكون بذلك سجلا لسِيَرهم لقرون ماضية، ظهر جنس أدبي جديد احتل مكانة في المجال الأدبي متمثلا في الرواية، لتصبح بعد ذلك ديوانا للعرب في العصر الحديث، بعد أن وجد الأدباء ضالتهم ومتنفسهم فيها، يرصدون أوضاع المجتمع ويجسدون أزماته من خلالها.

ولما شهده العرب في العصر الحديث من موجات استعمارية امتدت إلى كامل البلاد العربية؛ من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وكون أن الأدب ينزع بطبيعته إلى الحرية، نجد الأدب في العصر الحديث يتناول موضوع السجن بكثرة؛ وذلك لما جره الاستعمار على البلدان العربية سواء كانت تقبع تحت وطأته أم بعد نيلها للاستقلال، وبذلك تكون الظروف السياسية والأوضاع التي مرت بها الأمة العربية منعطفا حادا انعكس على الأدب، فسار الأدب جنبا إلى جنب مع الأوضاع السائدة في الدول العربية والإسلامية؛ وحتى غير العربية والإسلامية.

وبما أن الأدباء – وعلى مر العصور– هم لسان حال قومهم ومجتمعاتهم والمتبنين لمواقفهم ومعارضاتهم كانوا بذلك أول المُعَرَّضِينَ للقمع والتنكيل والسَّجن، وبما أن الكيلاني كان واحدا من أولئك الذين عاشوا وعايشوا هذه التجربة، ومن الذين صرحوا بمعارضتهم واستنكارهم للأوضاع المزرية آنذاك، يقول في ذلك:

أخي ما بالنا نمضي وروح الحق مقهورة
يقال الناس أحرار ودنيا الناس مهدورة
وأحلامي وآمالي بسجن الليل مأسورة

أريد الفجر بساما وأعشق يا أخي نوره

فكان لذلك –الاستنكار والمعارضة– الأثر الكبير في حياته. لكل ذلك ارتأيت أن أسلط الضوء على جانب من الجوانب البارزة في أعماله ألا وهو السجن في دراسة بعنوان:

السجن في روايات الكيلاني "**ليل وقضبان**" أنموذجا.

أما عن **الأسباب** التي كانت خلف اختياري لهذا الموضوع فهي:

–دراسة أدب السجون والتعرف عليه.

– دراسة أعمال الكيلاني. والاطلاع على أهم أعمال الروائي التي تناولت السجن.

– تسليط الضوء على السجن كظاهرة من أبرز الظواهر في الأدب الحديث.

– قلة الدراسات من هذا النوع في تناولها لمثل هذه الظواهر. لما يحف بها من محاذير سياسية.

وأسعى من خلال بحثي هذا للوصول إلى مجموعة من **الأهداف**، متمثلة فيما يلي:

– الوقوف على ظاهرة أصبحت متفشية في الدول العربية خاصة وذلك كحتمية للموجة الاستعمارية التي مرت بها وما زالت.

– تسليط الضوء على الجانب المظلم خلف قضبان السجن، وطبيعة الحياة هنالك حيث السجان سيد والسجين عبد.

وإن أهمية هذه الدراسة تتأتى من خلال عنصرين: أولا السجن والسجين كظاهرة في الأدب، ثانيا السجن في أدب الكيلاني.

أما عن الدراسات السابقة، فلم تكن بهذه الرؤية التي نراها؛ فنجدها قد تناولتها من جانب آخر، فهناك من تناولتها في دراسة نقدية نسوية متمثلة تحت

عنوان رواية " **ليل وقضبان**" **لنجيب الكيلاني (دراسة نقدية نسوية)، لطيفة، دراسة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة هداية الله الإسلامية الحكومية، جاكرتا 2010م**، وأخرى تناولتها في دراسة للمضامين الاجتماعية وهي مقال في مجلة بحوث للغة العربية وآدابها **تحت عنوان " المضامين الاجتماعية في رواية ليل وقضبان لنجيب الكيلاني، لمحمد مهدي/ سمانة نقوي، وهي مجلة نصف سنوية بجامعة أصفهان، العدد7.**

وإن دراستنا رغم أنها تستفيد من الدراسات السابقة، إلا أنها تختلف عنها في كونها تبحث في ظاهرة مختلفة، ظاهرة من الظواهر التي تناولها الأدب في العصر الحديث؛ ألا وهي السجن، لنحاول أن نرصدها في أدب الكيلاني، تحت عنوان السجن في روايات الكيلاني "ليل وقضبان" أنموذجا.

و**الإشكالية** الأساسية في هذا البحث هي:

- كيف يتجلى السجن في روايات الكيلاني؟

وتندرج ضمن هذه الإشكالية أسئلة فرعية هي:

-ما هي أسباب السجن التي يقدمها لنا الأدب؟ وما هي أنواعه؟

- ما هي نظرة المجتمع للسجين؟ وما علاقة السَّجان بالسجين؟

- وما الفئة من المجتمع التي يطالها السجن أكثر؟

تستفيد هذه الدراسة في بحثها **السجن في روايات الكيلاني " ليل وقضبان" أنموذجا** من ثلاث مناهج أساسية، وذلك بحسب أقسام الدراسة، القسم الأول والمتعلق بالسجن كظاهرة اجتماعية في الأدب اعتمدت فيه على المنهج الاجتماعي وذلك لدراسة الظاهرة، أما القسم الثاني والمتعلق بالسجين فتطلب مني الاستعانة بالمنهج النفسي، وذلك لفهم الأبعاد النفسية للسجين وما يعتريها في

سجنها، أما عن القسم الأخير فدراسة جمالية تتكئ أساسا على البنيوية، وتستفيد من منجزات السيميائية خاصة فيما يتعلق بالشخصيات، كما أقر ذلك **عبد الملك مرتاض** في كتابه "في نظرية الرواية".

أما أقسام البحث فثلاثة فصول وخاتمة يتصدرها تمهيد، وقد تناولنا في هذا الأخير السجن معجميا، ثم السجن في حياة الكيلاني، أما الفصل الأول والذي عنونته بمظاهر السجين في أعمال الكيلاني؛ فقد تطرقت فيه إلى السجين السياسي، السجين العادي، السجانون؛ وذلك في مجموعة من أعماله الروائية: **حكاية جاد الله، في الظلام، رجال وذئاب، عمر يظهر في القدس، حارة اليهود، ملكة العنب.**

أما الفصل الثاني فيتناول جوهر الدراسة، وذلك ببحثه في تجليات السجن في رواية "**ليل وقضبان**"، وذلك من خلال ثلاثة مباحث: الأول تناولنا فيه السجن موضوعا لهذه الرواية، أما المبحث الثاني فقد تناولت فيه السجناء في الرواية، لنتطرق في المبحث الأخير لطاقم السجن متمثلا في السجان ومدير السجن.

أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه بنية المكان والشخصيات في رواية "**ليل وقضبان**"

وفي الختام تم رصد أهم الأفكار التي تطرقنا إليها في بحثنا، لنقف عند أهم مظاهر السجين في أعمال الكيلاني، وإلى تجليات السجن في رواية "**ليل وقضبان**" ثم عند أهم الملامح الجمالية فيها؛ وذلك من خلال دراسة بنية المكان والشخصيات في رواية ليل وقضبان.

وقد اعتمدت في بحثي مصادر مهمة ومراجع لا تقل أهمية عنها، والأكيد أن أعمال الكيلاني كانت أهمها؛ وذلك لكونها موضوع الدراسة، بالإضافة إلى سيرته الذاتية متمثلة في كتابه "**لمحات من حياتي**" والتي ساهمت في فهم الكاتب

والاطلاع على تجربته الشخصية مع السجن وهو موضوع الدراسة، بالإضافة إلى المعاجم التي ساعدت وأصلت للاصطلاحات، وغيرها من المصادر والمراجع التي لا تقل أهمية، فالمجال يضيق بنا لذكرها هنا.

وأشير في الأخير إلى العراقيل التي واجهتني في بحثي، والتي كان من العسير تجاوزها، منها ما تعلق بظروفي الشخصية وأضرب عنها صفحاً، ومنها التي واجهتني في مسيرة بحثي؛ متمثلة في تغيير المدونة من طرف اللجنة العلمية، كونها لا تتوفر على ما يناسب موضوع الدراسة والوقوع في اختيار مدونة أخرى، مما اضطرنا إلى تغييرها مرة أخرى بمدونة تناسب الدراسة أكثر، مما أحدث انقطاعا كل مرة لفترة عن البحث، بالإضافة إلى عرقلة الأخطاء التي يرتكبها الدارسون في الإحالات، فحين نعود إلى النص المهمش لا نجده، ويستغرق منا وقتا للبحث عنه للتأكد، مما قصر بي صراحة عن بلوغ أقصى ما كنت أطمح إليه، ومع ذلك فقد تم الأمر ولو بالحد الأدنى الذي كنت أطمح إليه، لأنهي هذا البحث بإذن الله وتوفيقه أخيرا بحمده الذي قد منَّ عليَّ بالصبر والتوفيق، وقبل ذلك فقد منَّ الله عليَّ بمشرف وحده الله يعلم مقدار ما قدمه لي، ولن أنسى فضله عليَّ ما حييت.

وكم أعتذر عن التقصير الذي بدر مني في هذا العمل، وأسأل الله في الختام أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، والحمد لله أولا وأخرا.

ورقلة في: 2018/05/15م

إيمان عاشوري.

تمـهـيـد

تمهيد: عن السجن والكيلاني.

1- السجن مدخل معجمي.

أ-لغة.

ب-اصطلاحا.

2- السجن في حياة الكيلاني.

2-1-الكيلاني.

2-2-السجن والكيلاني.

تمهيد:

1-السجن مدخل معجمي:

أ- لغة: "سجَنه يسجنه سجناً: حَبَسَه، وفي بعض القراءات: ﴿ السَّجْن أحبُّ إلي﴾ [يوسف 33].

والسِّجْن: المَحْبس، وفي بعض القراءات: ﴿ السِّجن أحب إلي﴾ [يوسف 33].

والسَّجَان: صَاحبُ السجن.

ورجل سجين: مسجون، وكذلك: الأنثى، بغير هاء.

والجمع: سُجَنَاء وسَجْنَى:

وقال اللحياني: امرأة سجين وسَجينة: أي مسجونة، من نسوة سَجْنَى وسجائن.

ورجل سَجين في قوم سجناء، كل ذلك عنه.

وسَجَنَ الهَمَّ يسجُنُهُ: إن لم يبُثَّه[...]

وسِجِّين: وادٍ في جهنّم-أعوذ بالله منه- مشتق من ذلك.

والسِّجين: الصلب الشديد من كل شيء، وقوله تعالى:﴿ كلاّ إن كتاب الفجار لفي سِجِّين﴾ [المطففين 7]

قيل: المعنى: كتابهم في حبس لخساسة منزلتهم عند الله.

وقيل: في سجِّين:في حجر في الأرض السابعة.

وقيل: في سجين: في حساب.

ويقال فعل ذلك سجِّينا: أي علانية."[1]

كما أورده ابن منظور في لسان العرب بمعنى "قال: ﴿ رب السِّجن أحب إلي ﴾ [يوسف33]. فمن كسر السين فهو المَحْبِسُ، ومن فتح السين فهو مصدر سَجَنَهُ سجنا. وفي الحديث: ما شيءٌ أحقَّ بطولِ سَجْنٍ من لِسَانٍ والسجان: صاحب السِّجْنِ[...]

---

[1]- علي ابن إسماعيل بن سيده: المحكم المحيط الأعظم في اللغة، تح/ محمد علي النجار، ج 7، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط1، 1393هـ-1973م، ص196.

قال ابن عَرَفَةَ: هو فِعِّيلُ من سَجَنْتُ، أي هو محبوسٌ عليهم كي يُجازوا بما فيه [...] ويقال: فَعَلَ ذلك سِجِّيناً، أي علانيةً..."[1]

كما أورد البستاني في تعريفه للسجن قوله: "سجنه يسجنه سجنا حبسه في السجن... ج سواجن*السجان صاحب السجن[...] السجن المحبس ج سجون *السجين المسجون ج سجناء وسجنى."[2]

"السجان حارس السجن[...] السِّجن، المكان الذي يحبس فيه المتهمون أو المجرمون، ج سجون."[3]

ولقد أورد الراغب الأصفهاني في تعريفه للسجن في كتابه **المفردات في غريب القرآن** "سجن: السَّجْنُ الحبْسُ في السِّجْنُ[...]

قال﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين– ودخل مَعَهُ السِّجْنَ فتيان﴾[يوسف35–36].

والسِّجِّينُ اسمٌ لجهنمَ بإزاءِ عِلِّيين وزيد لفظه تنبيها على زيادة معناه وقيل هو اسمٌ للأرض السابعة، قال ﴿ لَفي سِجِّين– وما أدراك ما سجِّينٌ ﴾[المطففين8]."[4]

ولقد ورد في معجم ألفاظ القرآن الكريم " لَيَسْجُنُنَّهُ: من سَجَنَ يَسْجُنُ: يضعه في السجن.

"ليسجُنُنَّهُ:﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ [يوسف35].

يُسجن: يوضع في السجن.

يسجن: ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ [يوسف25].

السِّجْنُ: المكان الذي يوضع فيه المتهمون.

السِّجْنُ: ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ 33 يوسف.

المسجُونِينَ: من يوضعون في السجن.

---

[1]– إبن منظور: لسان العرب، مج 3، دار المعارف، تح نخبة من العاملين بدار المعارف، القاهرة، د. ت، ص1947.

[2]– بطرس البستاني: قطر المحيط، بيروت، 1869م، ص899.

[3]– جبران مسعود: الرائد، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، طبعة 7، آذار/مارس 1992م، ص32.

[4]– أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح/ وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت– لبنان، 502هـ، كتاب السين، ص225.

المسجونين: ﴿ قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ 29 الشعراء."[1]

كما أورد صاحب معجم **تكملة المعاجم العربية** في ذلك قوله: " سجَّن (بالتشديد).

سجَّنَ: سجَّن الماء: حبسه (فوك).

انسجن: حُبس: اعتقل في السجن (فوك، أماري ديب إضافات ص3).

سِجْن: وجمع الجمع: سُجُونات.

السُجُون: أهل السجون أي المسجونون.

وفي الحديث شهدت عليا بالكوفة يعرض السجون أي يعرض من فيها من المسجونين يعني يشاهدهم ويفحص أحوالهم.

سِجْن الغضب: اسم سجن يحبس فيه من يثير غضب الأمير(ألف ليلة 4 :720).

سجن الغدر: سجن في فاس (تاريخ البربر2 : 557) أو سجن الغور كما هو في طبعة بولاق ولا أدري كيف أفسرها."[2]

مما سبق نلاحظ أن جميع المعاجم العربية تشترك في تحديدها لمفهوم السجن واشتقاقاته، فنجدها تُعَرِّفُه على أنه الحبس، والسجن بالفتح والكسر، وأن السجن هو المكان الذي يوضع فيه المحكوم عليهم بالسجن.

ب-اصطلاحا:

اهتمت الشريعة الإسلامية بتقويم أخلاق الإنسان عند الاعوجاج ، وبإصلاحه عند الفساد، كما اهتمت بصحته النفسية والجسدية، فتمثلت هذه الاهتمامات وتجسدت في " دأب [المسلمين] على عمارة دور التقويم والإصلاح والتربية والتهذيب، ومن هذه الدور السجون، التي أنشأها الحكام والسلاطين [المسلمين] وطوروها وراعوا فيه الجوانب النفسية والأخلاقية والصحية والتعليمية... لذلك تعد قضية عمارة السجون قضية هامة في العصور الإسلامية،

[1]- معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث ، ج1، مصر، ط. منقحة، 1989م، ص559.

[2]- رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، تر/ محمد سليم النعيمي، دار الرشيد، العراق، ج6، د.ت، ص36-37.

لما لها من أثر كبير في حماية المجتمع من الجريمة والفساد وتقويم الأشخاص المنحرفين وإخراجهم للمجتمع [أناسا صالحين]."[1]

"فالسجن الشرعي هو المكان الذي [يمنع فيه الشخص] من التصرف بنفسه سواء أكان في بيت أو في مسجد أو في أي مكان آخر.

وقد أفرد الحكام المسلمون بعد ذلك أبنية خاصة للسجن وعدوا ذلك من المصالح المرسلة وصار لفظ السجن علما على ذلك المكان الخاص بتنفيذ الحكم بالحبس[...]

السجن قانونا: لا يخرج عن المعنى الشرعي: فهو مكان يقضي فيه المحكوم مدّة العقوبة."[2]

وقال الكاساني: "هو منع الشخص من الخروج إلى أشغاله ومهماته الدينية والاجتماعية."[3]

وكما يبدو فإن المعنى الشرعي والاصطلاحي للسجن منقول عن المعنى اللغوي الدال على مطلق المنع والتقييد؛ تقييد الحريات بحق لا سلبها من غير حق، وذلك في معناها الإيجابي؛ أو بالأصح المعنى الذي أوجدت من أجله السجون وسُنَّت من أجله هذه القوانين، من أجل تقويم سلوكيات الإنسان كفرد من المجتمع، والسعي من أجل إيجاد مجتمع يسوده الأمن والسكينة، مجتمع سوي لا تنتهك فيه الحقوق ولا تسلب فيه من غير وجه حق.

---

[1]– عبد الوهاب مصطفى ضاهر: عمارة السجون في الإسلام، الأبحاث التمهيدية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت– لبنان، 2014م، ص3.

[2]– عبد الوهاب مصطفى ضاهر: المرجع نفسه، ص7.

[3]– أبو غدة حسن: أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام، رسالة دكتورا، مكتبة المنارة، الكويت، ط1، 1987م، ص39.

2-السجن في حياة الكيلاني:

2-1-الكيلاني:

"ولد نجيب بن الكيلاني بن إبراهيم بن عبد اللطيف الكيلاني في قرية (شرشابة) في محافظة الغربية، إحدى محافظات جمهورية مصر العربية، وكان ذلك في شهر محرم عام 1350هـ الموافق لـ الأول من يونيو عام 1931م.[1] توفي الدكتور نجيب الكيلاني " في القاهرة يوم الإثنين 5-10-1415هـ بعد مرض شديد ألَمَّ به. "[2]

2-2-السجن والكيلاني:

وقبل أن نتطرق إلى السجن في حياة الكيلاني يجدر بنا الإشارة إلى الحرية، كمفهوم ينشطر منه السجن؛ أو بالأصح يسلبها السجن مفهومها.

" فهي حق أساسي لكل إنسان، وهي متأصلة فيه، منذ ولادته تماما كالكرامة، فالإنسان يولد حرا مكرما، بحكم طبيعته البشرية وبحسب جميع الشرائع الدينية والاجتماعية. لذلك لا يجوز حرمان أي إنسان من حريته بشكل تعسفي، لا يجوز احتجاز أي شخص أو توقيفه بدون مسوغ قانوني، أي بناءً على جرم معين. وفقا لأصول المحاكمات الجزائية وقانون العقوبات، يتم حجزه لمدة قانونية معينة على ذمة التحقيق، وبالتالي يبقى المتهم بريئا حتى تثبت إدانته." [3]

في الجانب الآخر أو النقيض لما ذكرناه نجد السجن وجها من وجوه الحرية المسلوبة بحق أو بغير حق، يغدو صاحبها أسيرا تكبله الأصفاد ، وتحيط به أسوار تحجب عنه نور الحياة، يغدو فيها أسيرا لأفكار تتسلل إليه يوما بعد يوم تبعث اليأس في نفسه حتى يتمكن منه، لتزيد من وحدته وغربته داخل السجن.

---

[1]- عبد الله بن صالح العريني: الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية، إركنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط2، 2005م، ص11.

[2]- عبد الله بن صالح العريني:المرجع نفسه، ص17.

[3]- ربيع قيس: السجون في لبنان، تشريع وحقوق وتوصيات، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم 32، المكتبة الشرقية، بيروت، 2013م، ص11-12.

أما عن السجن في حياة الكيلاني، فلقد كان أول دخول له السجن " مع جماعة الإخوان الذين زج بهم في السجون الحربية في 8-7-1955م وصدر عليه حكم بالسجن عشر سنوات إلا أنه أفرج عنه في أواخر عام 1377هـ/1958م.

ولم يلبث إلا بضع سنوات حتى أعيد إليه في عام (1385هـ/1965م) وبقي سجينا حتى حدثت نكبة حزيران (1387هـ/ 1967م) فأفرج عنه، وبهذا يكون قد قضى في السجن ثلاث سنوات في المرة الأولى وسنة وبضعة أشهر في المرة الثانية." [1]

هاهو الكيلاني يصرح تحت عنوان: **السجون السبعة ونهاية المطاف** عن نهاية حريته، وبداية أيام تجرع فيها ويلات الأسر والتعذيب بشتى أنواعه ليعدد لنا السجون التي قد أمضى فيها فترة سجنه فيقول:

" عندما أعود إلى الماضي خاصة عام 1955م أذكر أن أول سجن دخلته كان السجن الحربي، أما السجن الثاني فقد كان سجن مصر(قره ميدان)

وبعده في أواخر عام 1955 تم ترحيلي إلى سجن أسيوط وهو السجن الثالث، بقيت في هذا السجن حتى أغسطس 1957 على ما أذكر، وبعده انتقلت إلى سجن القناطر الخيرية وهو السجن الرابع، وعدت مرة أخرى إلى سجن القاهرة حيث تم الإفراج الأول عني منه. وفي عام 1965م جئت مرغما إلى أوردي أبو زعبل وهو السجن الخامس، ثم إلى معتقل أبو زعبل الجديد الذي أكتب عنه الآن، أما ذهابي إلى السجن السابع والأخير فقد كان في عام 1966، وهو سجن (مزرعة طرة)." [2]

ليؤكد على ما عاناه من ويلات وما لحقه من أذية طوال مدة سجنه ، خاصة كون أن سبب اعتقاله كان سياسيا فيقول:

" هذه هي السجون السبعة التي تقلبت فيها على أحر من الجمر، وكان لكل سجن مذاقه الخاص وسجناؤه وإدارته، لكن المعاملة بالطبع بالنسبة للسجين أو المعتقل السياسي أسوأ

---

[1]– عبد الله بن صالح العريني: الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية، إركنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط2، 1425هـ/2005م، ص15.

[2] –نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، القسم الخامس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1994م، ص106.

معاملة، على الرغم من التصريحات الرسمية الكاذبة التي تدعي المعاملة الإنسانية للسجناء ورفضها للتقارير الصادقة التي تصدر من منظمة حقوق الإنسان العالمية، على الرغم من أن تلك التصريحات تصدر على أعلى المستويات..."[1]

ليستمر في سرد معاناته في السجن وما لاقاه من سوء معاملة هو وغيره من المساجين، تحت وطأة الظلم والاستبداد، تُنْتَهَكُ حقوقهم وتُسْلَبَ حتى حرياتهم داخل السجن إن صح تسميتها بذلك.

وفي محاولة لرصد أهم المحطات المتعلقة بالسجن في حياة الكيلاني، وبالاستعانة بما أورده الكيلاني في مذاكراته ارتأيت أن أقسمها على النحو التالي:

2-2-1-الطريق إلى السجن:

يصور لنا الكيلاني لحظة اعتقاله أول مرة وقد كان ذلك " لحظة وصوله في سيارة أجرة من (زفنى)، وينتقل إلى (التخشية) في قسم طنطا، ليزج مع اللصوص والمجرمين، ثم ينقلونه في حراسة مشددة، إلى السجن الحربي بالعباسية أو البوابة السوداء، حيث حفلة الاستقبال! الإستقبال الدموي بضرب بالسياط على الرؤوس والوجوه، ثم الفصل الأخير عن المحاكمة، وهي محاكمة صورية، بعد تحقيقات سريعة تنزع الاعترافات تحت التعذيب الوحشي، وعقدت المحاكمة برئاسة (اللواء صالح حتاتة) بتهمة جمع تبرعات لمساعدة أسر المعتقلين في أغسطس 1955م، ويصور أهوال السجن الحربي الذي قضى فيه ما يقارب من ثلاثة أشهر[...] ثم تم ترحيله إلى سجن القاهرة (قره ميدان) ومنه إلى سجن أسيوط." [2]

حيث يقول مودعا الدنيا حين ساقوه إلى مركز الشرطة: " صعدت الدرج بصحبة أحد العسكر، وما أن بلغت الصالة في الطابق الثاني حتى فتح باب إحدى الحجرات قال لي العسكري:

-(تفضل..).

---

[1]- نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، القسم الخامس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ-1994م، ص106.

[2]- مجلة الأدب الإسلامي: عدد خاص عن الدكتور نجيب الكيلاني رائد القصة الإسلامية، السنة الثالثة، العددان 9-10، فصلية، رابطة الإسلام العالمية، بيروت، ديسمبر 1995م-أبريل 1996م، ص32-33.

دلفت إلى الغرفة، ثم أغلق الباب، ووجدت عددا من الرجال جالسين صامتين، وعلى وجوههم الأسى والألم[...] وليس في الغرفة إلا نافذة مغلقة ذات قضبان حديدية، وطاقة للنور والهواء."[1]

لينتهي الأمر به حبيسا لجدران السجن وهي تطبق على صدره وتكتم أنفاسه تكاد تخنقه، فحتى تلك النافذة المغلقة بقضبان من حديد والنور يتسلل منها، تذكر السجين بأسره أكثر مما تشعره بالحرية، فكلما أبصرها أدرك أنها حريته الوحيدة في سجنه.

فها هو مرة أخرى يصف لنا أحد السجون التي قد رُحِّلَ إليها وهو سجن **أوردي أبو زعبل** حيث يقول:

" ثم عبرنا البوابة الضيقة واحدا واحدا تحت الحراسة المشددة، ثم أغلق علينا باب السجن، ثم جلسنا القرفصاء صفوفا في باحة السجن الواسعة..."[2]

نجد الكيلاني وهو يصف السجن بـ بوابة ضيقة وحراسة مشددة وكأنما يصف حاله؛ أسيرا وقد ضاقت به نفسه واشتد به الكرب والهم، فحتى تلك الباحة باتساعها ستضيق لكثرة المساجين فيها، وما كان اتساعها إلا لتسع أكبر عدد ممكن من المسجونين، ربما يبدو السجن من الخراج أكثرا اتساعا مما يبدو عليه من الداخل؛ فهو ضيق يكاد يختنق فيه كل من يحل به على الأقل في نفس كل سجين، وبذلك يكون الطريق إلى السجن في نظرهم بداية للهم والأسى وهم يدركون حقيقة ما ينتظرهم خلف أسوار السجن العالية.

2-2-2- زوار الفجر:

كثيرا ما يساق المشتبه بهم إلى السجن والناس نيام، ينام في بيته ليصحو فيجد نفسه بين جدران السجن وقضبان من حديد ، على صرخات الأسرى والسياط تهوي على أجسادهم العارية دون رحمة أو شفقة، ولربما كانت تنهال على جسده وهو غير مدرك حتى لتهمته، هذا هو حال الأسرى هنالك حيث يصبح السجين فريسة للوحوش الضارية التي قد تربت في نفوس السجانين.

---

[1]- نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، القسم الخامس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1994م، ص5.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص10.

فنجد الكيلاني يصور لنا دهشة بعض المعتقلين ممن سيقوا إلى السجن فجرا وهم يجهلون حتى التهمة الموجهة إليهم فيقول: " كانوا مجموعة من المعتقلين أتى بهم رجال الأمن إلى هنا وقت الفجر. وهم من البلدان المجاورة، تمهيدا لترحيلهم إلى أحد المعتقلات التي لا يعرف أحد عنها شيئا، وليس فيهم من يعرف ما الجرم الذي ارتكبه، ولهذا أخذوا يتساءلون..".[1]

وربما ما يثير انتباهنا هو ما يشير إليه الكاتب من خلال توقيت القبض على المشتبه بهم، فهنا الفجر لم يعد يحمل معاني الفرج والحرية كما ألفناه، فالكاتب يشير إلى أن العساكر قد حَّملوا الفجر مفاهيم ليست بعيدة عن عالمهم، عالم تكتنفه الظلمة والأسر، يشوبه الشك والريبة، يدل على أن الأمر قد دبر بليل.

ليستمر في سرده لأحداث نقلهم من أحد السجون التي كان سجينا فيها، ويشير إلى أن ذلك كان فجرا فيقول : " قبيل الفجر جاءت سيارات، وحراس مدججون بالسلاح، وعربات نجدة ولا سلكي، ثم حشرونا فيها وانطلقت بناَ إلى المجهول، حتى الذين يقودون السيارات لا يعرفون أين سيتجهون، إنهم يتلقون الأوامر بـ اللا سلكي ...". [2]

وفي ذلك تسليط للضوء على جوانب وخبايا تستتر وراء دجى الليل الحالكة، فصاحب الحق لا يخشى أن يظهر في النور للعيان، والمكائد لا تحاك إلا ليلا والناس نيام، فينام صوت الحق ليصحو على صرخات الأسرى تحت وطأة السجان، ليبقى السجن عالم مجهول المعالم والأحكام.

2-2-3-الليالي الطويلة:

أما عن الليالي الطويلة؛ فهي ليالي الظلم والحرمان، قد تمر الليالي والأيام بل السنين دون أن نشعر بها خارجا، لكن في نظر السجين حتى الثواني لا تمر فكيف في حضرة السجان..!

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص6.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص10.

ليستمر الكيلاني في تصويره لبشاعة الظروف التي مر بها في السجن، وليالي السجن القاتمة وكيف يعاقب من حكم عليهم (بالتكدير) من المسجونين بالحبس الانفرادي..

لينتهي بشعاع من نور يتسلل إليه في غياهب ذلك السجن " حين بدأ يكتب روايته (الطريق الطويل) التي استوحى أحداثها من وقائع قرية مصرية، استجابة لإعلان عن مسابقة تقيمها وزارة الثقافة والإرشاد [...] وكانت هذه الرواية التي كتبها وهو سجين، ".[1]

فنجد الأديب قد وجد ما يؤنس وحشته وغربته داخل السجن في الليالي الطوال، وكان ذلك النور الذي تسلل إليه يتجسد في كتاباته، والتي يحاول من خلالها أن يصور لنا عالما موازيا للواقع يتجسد فيه السجن في شتى مظاهره.

ويقول الكيلاني في كتابته لأول رواية له مستشعرا مرارة الليالي الطويلة في ليل السجين: " وذات يوم كنت بعيدا هناك خلف الأسوار والقضبان.. فاضت آلامي على الورق حروفا وكلمات وأحداثا.. إنها قصة (الطريق الطويل) أول رواية كتبتها.. اقرأ سطورها الأولى.. وامض معها.. كنت أفيض بكلماتها وأنا أجلس القرفصاء على (برش) من سعف النخيل.. وذاكرتي تعود إلى هناك.. إلى قريتي.. الشخصيات التي عايشتها.. الأسرة.. الصبر.. المعارك.. الثورة.. الحلم بعالم أفضل.. الحب.. كنت لا أعتبر الكلمة كائنا منفصلا عني.. ثم أقترب منه وأعانقه.. لا.. كان عشقا.. إنها نسيج روحي ونفسي وحياتي.. "[2]

فنجده يصور لنا عذاب ومعانات السجين التي قد مزقت روح كل سجين طيلة أيام سجنه، فلا تمر الليالي الطوال إلا وقد أنهكت روحه المتعبة، فلا يجد الملاذ إلا في كتاباته التي قد أصبحت مؤنسه الوحيد في لياليه الطويلة.

ويقول الكيلاني في التزامه بقضيته ومبادئه وهمومه التي تسري في دمائه، وتصويرها من باب استنكار هذا الواقع المرير الذي يُعايشه كل سجين خلف قضبان السجن، في ظلمته وحيدا، هنالك حيث تنتهك حقوقه وتسلب منه دون أن ينطق ببنت شفة؛ ولا يفعل ذلك إلا من

---

[1]– مجلة الأدب الإسلامي: عدد خاص عن الدكتور نجيب الكيلاني رائد القصة الإسلامية، السنة الثالثة، العددان 9–10، فصلية، رابطة الإسلام العالمية، بيروت، ديسمبر 1995م–أبريل 1996م، ص33.

[2]–نجيب الكيلاني: تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1437هـ–2015م، ص139.

فرط في حياته، وحتى وإن فعل فلا أذن صاغية تبدي له بالا فتسمعه، ولا شيء سيتغير، فهم يعلمون جيدا كيف يخرسون صوته، فكان الكيلاني يرى في نفسه صوت ذاك السجين خلف أسوار الذل والاستبداد، وصوت كل مظلوم قد طالته يد الجلاد لتخرس حتى أنَّاته حين الوجع .

فيقول: " ألم يكن ذلك صدقا مع النفس ومع الواقع ومع المعاناة التي تعيشها شعوبنا؟ وكيف يستطيع الكاتب الحر الصادق أن يفلت من قضيته ومبادئه وهمومه التي تسري في دمائه، وتتغلغل في أعماقه؟ كنت في هذه المرحلة أتساءل ماذا أكتب؟ ولمن أكتب؟ أما الكيف!! فهنا وقفة.. لأن الكيفية تتعلق بالموضوع الذي أتناوله، وبالتوهج الشعوري الذي يخالطه."[1]

ويستمر في تبريره لالتزام الأديب وتوضيح مفهومه بقوله:

" الالتزام اختيار حر مصدره قناعتك أنت.

الالتزام صورة من صور القهر والتسلط إنه نوع من (التجنيد الإجباري)

الالتزام رسالة جهاد ونية.

والالتزام سجون وأسوار وأسلاك شائكة ومعسكرات عمل شاق."[2]

لكنه من جهة أخرى يحاول تسليط الضوء على بعض الظواهر السوداوية، التي أصبحت تشكل صورة مخلة بالإنسانية أو بشكل أدق واقعا مريرا تشمئز منه النفوس وتنفر، واقع قد زاد من طول الليالي طولا ولهم السجين هما على همه.

فها هو يصف مجتمع السجن على أنه " ما هو إلا وحدة اجتماعية تنضوي تحت لواء المجتمع الكبير، مشابها في ذلك أحد أجهزة الجسم، غير أن مجتمع السجون مجتمع معتل سقيم."[3]

ليستطرد قائلا: " ولقد كان لطول المدة التي قضيتها بين المجرمين، ومحاولة التغلغل في أعماق حياتهم، وأفكارهم، وتصرفاتهم، مدى بعيد في محاولة الاستفادة من عنصري المشاهدة

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص140 .

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص144 .

[3]– نجيب الكيلاني: المجتمع المريض، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م، ص3.

والتجربة أثناء دراستي فضلا عن الثقة التي يكتسبها الدارس بطول المعاشرة، تكشف الكثير عن غوامض حياة المجرمين واتجاهاتهم[...] وقد يكون في هذه الدراسات بعض الصور القاتمة المخجلة التي تتعلق بحياة هذا المجتمع المريض–مجتمع السجون– وقد يكون بعض هذه الصور مخالفا لما تذيعه الدعايات."[1]

فنجد الكيلاني يشير إلى أحد المشايخ الذين كانوا معه في السجن وهو يتساءل متذمرا من هذا الوضع الذي قد طال بهم فيقول:

"(أما لهذا العذاب من نهاية؟)." [2]

وقد أدرك الكيلاني أن حالهم هذا سيطول، والليالي الطوال قد بدأت لتوها فيقول: " إنه يجب أن نرضى بما هو مقسوم، ونحاول أن ننسى الدنيا خارج هذه الأسوار، ولتكن هذه العنابر بمثابة كهوف ننعزل فيها إجباريا عن الخلق وداعا يا دنيا.. هذا هو عالمنا الجديد.."[3]

فعلى ما يبدو أن الأيام القادمة ستحمل بين طياتها أحداثا كثيرة وسيطول بهم المقام هنالك والوقت لا يمضي فيقول: " كانت الأيام تمر بطيئة ثقيلة، ودخل علينا شهر أكتوبر 1965م ونحن نعاني مرارة الانتظار والقلق..." [4]

كما يشير الكيلاني إلى حادثة مؤلمة قد حدثت في السجن تُنْبِئ بوحشة الليالي القادمة وبمستقبلهم المجهول، والهم لا ينزاح على قلوبهم والليالي لا تمر عليهم إلا وقد أرهق التفكير روحهم المنهكة فيقول:

" في ليلة السابع والعشرين من شهر أكتوبر 1965م وكان قد مضى علينا في المعتقل حوالي خمسين يوما، كنا نجلس في المساء حوالي الساعة العاشرة،وإذا بالباب يفتح فجأة، فنهب واقفين،ووجدنا أمام العنبر عددا من العسكر، وهتف أحدهم في جفاء وسرعة قائلا:

---

[1]– نجيب الكيلاني: المجتمع المريض، ص4–5، بتصرف.

[2]– نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، القسم الخامس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ–1994م، ص7.

[3]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص14.

[4]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص23.

-(ستة منكم).

[...] وبعد دقائق قليلة سمعنا صراخا عاليا واستغاثة، وجمدنا في أماكننا لا ندري ما يجري في الخارج..."[1]

فيما بعد تبين أن العساكر قد ضربوهم ضربا مبرحا وما كان ذلك إلا احتفالا من العساكر بذكرى الاعتداء على جمال عبد الناصر، هكذا تمر الليالي الطوال في ليل السجين، لا يدري ما تحمله له...

ليشير الكيلاني إلى موقف آخر قد طال بهم الانتظار فيه، وذلك حين أخذ أحد المساجين بالصراخ من شدة الألم فلم يجدوا أمامهم سوى محاولة الحديث مع الضابط المناوب ومحاولة شرح حالة السجين له والتي لا تحتمل التأجيل، فما كان منه إلا أن أجابهم بقوله:

- " (سأبلغ الداخلية في القاهرة، وإذا لم يكن التشخيص صحيحا فستكون نكبة عليك وعلينا..).
- (المعتقل محمود سرحان في حالة خطرة..).
- (سَأتصرف.. أغلق الباب يا عسكري).

وجلسنا ننتظر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة، ومحمود يئن ويتوجع...[2]

فنجد الكيلاني يحاول أن يصور لنا هذه المشاهد من البؤس والانتظار القاتل في ليل السجين، فحتى الصبر يحتاج صبرا على صبره ليتحمل طول الانتظار والليالي التي لا تمضي إلا وقد أنهكت فكرهم وروحهم وهم ينتظرون الفرج، ليتلاشى الأمل رويدا رويدا مع كل ثانية تمر في ليل السجين.

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص34.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص38.

فحتى الأمل الذي يمنح لهم كثيرا ما كان سرابا يتلاشى حين يوشكون على تصديقه، فها هي الخيبة في أبشع صورها يصورها نجيب لنا الكيلاني في موقف قد حدث مع أحد أصدقائه بعد أن طال انتظاره للفرج فيقول:

" وذهبت ذات يوم إلى المبنى الآخر لزيارة بعض الأصدقاء القدامى هناك، وعندما اقتربت من العنبر وقعت عيني على صديقي الأستاذ محمد العوضي سلام.. يا إلهي ماذا جرى؟ لقد تركنا ونحن في معتقل أبو زعبل الجديد على أساس أنه قد أفرج عنه..."[1]

فما أبشع أن نبني آمالا ويطول بنا انتظارها، وحين نعتقد أنها ستتحقق نجدها قد تلاشت أمام أعيننا، فالانتظار في السجن لا يحمل بين طياته سوى الخيبات، ومع ذلك نجد السجين وهو غريق في همه والأحزان تلف به من كل جانب؛ لا يتوانى في التمسك بأدنى بصيص أمل حتى وإن كان يوقن في قرارة نفسه أنه غير موجود أو أنه لن يتحقق حتى وإن طال الانتظار، هكذا كانت تمضي ليالي السجين الطوال.

2-2-4- سجناء بغير ذنب:

"المتهم بريء حتى تثبت إدانته" عبارة لطالما رددناها، لكن في الواقع لطالما كان المتهم مذنبا في أعين الناس والمجتمع دعونا لا نقل في أعين الناس بل في أعين السجان؛ وقد يسجن المتهم وهو لا يعلم حتى ما هي تهمته..!

ليصور لنا الكيلاني في أحد المواقف التي قد مرت به وهو في السجن مجموعة من المعتقلين الذين قد اعتقلوا وهم لا يدركون حتى ما هي تهمتهم فيقول:

" كانوا مجموعة من المعتقلين أتى بهم رجال الأمن إلى هنا وقت الفجر. وهم من البلدان المجاورة، تمهيدا لترحيلهم إلى أحد المعتقلات التي لا يعرف أحد عنها شيئا، وليس فيهم من يعرف ما الجرم الذي ارتكبه، ولهذا أخذوا يتساءلون.."[2]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص142.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص6.

ليستطرد قائلا: " ومع ذلك فإن الجميع كانوا على يقين من أنه ليس من الضروري أن يكون هناك سبب مباشر، فالسلطة تحبس المشبوهين والذين سبق اعتقالهم قبل ذلك، وقاية من الفتن وحفاظا على هيبة الدولة واستقرارها كما يقال دائما..."[1]

فالواضح أن السجن قد أصبح رمزا للظلم الذي يفقد الإنسان حريته بغير حق،ليصبح المتهم مدانا حتى قبل أن تثبت إدانته، فتصبح الحرية أماني تطوف بمخيلتهم وأحلاما ينامون على أمل أن تتحقق في يقظتهم.

ليستطرد قائلا في ذلك:

" (لقد اعتقلوا أشخاصا جددا لم نعرفهم في الإخوان من قبل، و[لم] يسبق اعتقالهم.. تصور إن فيهم (أخي الحسين) وهو فلاح.. وهناك جزار.. وطبال..وصاحب عربة كارو مصاب بالجذام.. إنهم لا يكادون يعرفون شيئا عن السياسة أو الدين اللهم إلا القليل..)."[2]

فعلى ما يبدو أن السجن قد أصبح يُساق إليه كل من خطر على بالهم أو مر عليهم في طريقهم، هم لا يحتاجون إلى أن يوجهوا لهم تهمة بَيِّنَة، يكفي أن يخطر على بالهم ذلك...

فحتى أولئك المتهمون الذين قد سيقوا إلى السجن، وعُذِّبُوا بغير ذنب ولم تثبت إدانتهم، سيبقون مسجونين حتى أجل غير مسمى، وذلك ما أشار إليه الكيلاني في قوله:

"ومن لا تثبت إدانته يحال إلى الأماكن التي يوضع فيها المعتقلون الأبرياء أو (المتحفظ عليهم) كما أطلقوا عليهم فيما بعد..."[3]

ليعود ويؤكد على ذلك بقوله: " وقد يعتقد البعض أن الذي لا يزج باسمه في قضية أو تحقيق بريء، ولا يصح أن يقلق على مصيره، هذا الاعتقاد هراء، فالكل متهم، والكل معرض للنقمة والانتقام، وسوط الجلاد لا يفرق بين سجين وسجين..."[4]

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص6.

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص7.

[3]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص9.

[4]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص13.

كما يشير في مواضع أخرى إلى من أعيد اعتقالهم بغير ذنب وذلك كون أنهم منذ سنين قد مضت كانوا مسجونين وهذا هو السبب الوحيد لسجنهم.

والغريب في الأمر هو القرار الذي أصدرته الحكومة في حق المسجونين الذين لم تثبت تهمتهم حيث أشار الكيلاني إلى ذلك القرار الذي قد ألقاه أحد الضباط على مسامعهم وهو يقول:

-" لقد قررت الحكومة صرف مرتبات الموظفين الذين لم يوجه إليهم الاتهمام..."[1]

وفي ذلك تصريح بأن المسجونين غير متهمين، وهذا هو الغريب في الأمر فلما السجن إذا؟؟ ليعود ليستطرد في الأمر فيقول:

"... لكننا في هذه الأيام لا نعرف أي إنسان هل هو متهم أم بريء أم مدان، لقد اختلطت الأمور، وتشوهت الحقائق، والإنسان يتأرجح كالريشة في مهب الريح."[2]

أن يسجن المرء بذب ربما يهون عليه ذلك من صعوبة الأمر قليلا كون أنه يدرك عاقبة ما قد أقدم عليه بمحض إرادته، وأن السجن ما هو إلا نتيجة لأفعاله، لكن أن يسجن المرء بغير ذنب ذلك ظلم في حق نفسه، فما عزاؤه إلا الصبر والترقب فعسى فرج الله قريب، يدعو الله أن قد طالته أيدي الظلم والغدر فلعل فرج الله قريب.

2-2-5- سجن السجن:

صحيح أن السجن وسيلة للتأديب والإصلاح، تأديب المجرمين وإصلاح سلوكياتهم، لكن كثيرا ما يصبح السجن رمزا للظلم الذي يفقد الإنسان حريته حين تمارس شتى أنواع الظلم والتعذيب على السجين بغير حق، فحتى السجين في سجنه له حقوق كون أنه إنسان؛ قد يصيب وقد يخطئ لكن ذلك لا يلغي من إنسانيته شيئا.

وقد يحرم السجين من أبسط حقوقه ظلما وذلك ما أشار إليه الكيلاني في مذكراته فيقول في إحدى المواقف حين زج به في السجن محاولا التحدث مع أحد رفقائه وهو عازف عن الكلام ويجيب هامسا ببطء:

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص40.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص44-45.

-" (يا دكتور... الكلام هنا ممنوع).

فعجبت، ونظرت إلى العسكري، وكأني أستفسر منه، فهز رأسه قائلا:

-(هذه هي الأوامر. ومع ذلك تستطيعون الكلام بصوت خفيض حتى لا يسمعكم المأمور)."[1]

كما يشير إلى حادثة أخرى وهي حين قام أحد الضباط باستجوابه وذلك ليس بغريب، الغريب كان موضوع الاستجواب، فكان حول كيفية معرفة زوجته لمكانه حتى ترسل إليه هدية بمناسبة عيد ميلاده..!

حيث ورد الاستجواب على النحو التالي:

-" (كيف عرفت زوجتك أنك في معتقل مزرعة طرة؟)

-(لا أعرف).

-(ألم ترسل إليها خطابا...)

وبعد استجواب طال به ولم يجد جوابا لسؤاله أردف قائلا:

..إذا لم تجب على سؤالي، فسوف يستدعون زوجتك ويحققون معها في الداخلية.. وأنت تعرف أن ذلك أمر غير مريح لك ولها..)."[2]

كما يشير إلى انتهاك حقوق السجين، وإلى بعض المواقف المخلة بالحياء والتي قد أثارت دهشته، وذالك لما وجده حين دخل العنبر فتوقف فجأة حين رأى إنسانا عاريا-كما ولدته أمه- مع أن برد الشتاء كان يجمد أطرافه وقد صاح في السجان مستنكرا ما يراه:

" -(ما هذا؟؟)

فرد علي السجان دون أن يبدو عليه أدنى اكتراث:

-(دا «ع . أ» المجنون) .

وسرعان ما أخذت دهشتي تذوب وتتلاشى، لكن وثب إلى ذهني سؤال:

فقلت للسجان:

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص6.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص120-121.

-(لما تتركون المساجين المجانين هنا داخل السجن؟؟ أما كان من الأوفق والأرحم بهم أن ترسلوهم إلى مستشفى الأمراض العقلية،فتحققوا من وراء ذلك هدفين: أولهما وضعهم تحت العلاج اللازم، والثاني هو إراحة باقي المسجونين من الضجة والقلق الذي يسببه لهم أمثال هذا المجنون؟؟).

فقهقه السجان ساخرا من كلامي وقال:

-(إن اسمه الحقيقي (ع. ا. ج) أما (ع. ا. المجنون) فهو اسم الشهرة لا غير، وهو ليس مجنونا كما تتصور.[1]

ويرد الكيلاني في استنكار لهذه الأوضاع، ولهذه الحياة المزرية والسلوكيات المنحرفة فيقول:

" وتبين لي أن مجتمع السجون له قيمه المتعارف عليها، وهو كأي مجتمع له عقله الجمعي الذي يضع القواعد والأصول التي يسير على هديها المجموع، وهذه القيم والقواعد، قد وضعتها نفوس وارتضتها عقول منحرفة، وأجازتها مقاييس مختلة فيها كثير من الشذوذ [...] ولا غرابة في ذلك لأن مجتمع السجون قد تشبع بالجريمة ".[2]

حيث يشير إلى مشكلة قد تفاقم وضعها، وكان السبب الرئيسي وراءها هو الازدحام، وأن الفصل بين المساجين في نومهم لم يطبق إلا في سجن القاهرة وسجن آخر فيشير إلى أنه " حيث يوجد الازدحام، توجد المشاكل المعقدة، والضيق النفسي، والعدوة الخلقية، وتفشي أوبئة الجريمة والانحراف، ففي مثل هذه البيئة المظلمة العفنة تنموا بذور الرذيلة وتترعرع، وتأتي بأسوأ الثمار..." [3]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المجتمع المريض، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401هـ-1981م، ص9-10.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص10-11.

[3]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص30.

فالأديب يستنكر هذا الواقع النتن، هذا الواقع المتردي، وقد سلط الضوء عليه من أجل انتشال هؤلاء من هذا العفن الذي قد أوقعوا أنفسهم فيه، أو على الأقل لمحاولة توعية من لازالوا على حافة الهاوية قبل أن يقعوا في هذا الواقع المعتم، ومحاولة إنطاق المسكوت عنه فيقول: " لقد حكمنا على المسجون بالسجن والعزل عن المجتمع حتى يرتدع ويزدجر، وتصح أفهامه ونظراته للحياة، ولم نلق به وراء الأسوار كي نضيف إليه شذوذا، وأمراضا إلى أمراض، لأن هذا سيكون جريمة في حق هذا المريض..." [1]

ويرى الكيلاني أن ما يكتبه من باب أنه يعيش عصره وحياة أمته ويلتزم بقضاياها فيقول: " إنني أعيش عصري وحياة أمتي، وأحاول أن أبدع لهم- دون زيف- رؤيتي التي هي من صميم واقعهم وأملهم وحلمهم وعالم أنقى وأفضل وأمثل..."[2]

فهو يرى أنه من مسؤوليته حمل هموم مجتمعه، ومحاولة التغيير من أجل تحقيق أحلامهم، بعالم يسوده العدل والحرية، عالم خال من الظلم واغتيال الأحلام.

ويستمر في تصوير حال أمته وما تشهده من ظلمة حالكة أصبحت تطبق على صدرها بيد من ظلم، يلفها الجهل والتيه؛ جهل بحقوقها المسلوبة، فظنت أنها حق لمن انتهكوها، وتيه قد خلفه جهلها بحقوقها فأمست كمن يمضي دون هدف، دون ضالة تهتدي بها في غياهب الظلمة التي أصبحت تحيط بها من كل جانب.

فيصور لنا الكيلاني حالها في قوله : " إنهم يعيشون في دروب تعسة من الغموض والتعقيد والحيرة والضياع، وهم يعانون ذلك فعلا، إنهم ليسوا في حاجة لمن يؤكد لهم هذا المعنى لأنهم يعايشونه ويلمسونه، لكنهم في حاجة لمن يخلصهم من قيود الحيرة ويبث في روحهم الأمل، ويدفعهم إلى السير حثيثا في (الطريق الطويل) إلى الخلاص.. والحرية.. والعدالة.."[3]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص30.

[2]- نجيب الكيلاني: تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1437هـ-2015م، ص144.

[3]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص145.

وفي ذلك يشير الكيلاني إلى أنه " ليس العيب في المبادئ والقيم الرفيعة، ولكن العيب في الرجال الذين يتصدون لحمل تلك المبادئ والقيم.

نحن شركاء في المسؤولية.. في العمل.. في المصير، والأقلام قد تبني وقد تهدم، وقد تجمع وقد تفرق، ولا بد أن نعمل متضامنين..."[1]

تعد تجربة السجن من أقسى التجارب التي قد مر بها الكيلاني في حياته، والتي قد تركت أثرا عميقا في حياته، فكثيرا ما أشار إلى السجن على أنه ليس وسيلة للإصلاح إنما مركز للفساد والظلم وانتهاك لكرامة الإنسان، وذلك يبدو جليا من خلال تجربته في السجن، والتي قد اكتوى فيها بنار العذاب والاغتراب.

ونجد ذلك واضحا جليا في نتاجه الأدبي حيث كان في كل مرة يشير إلى ذلك في كتاباته، وإن لم يكن هو الذي عايشها كان يشير إليها بعين مستنكرة لما تراه ونفس تنفر وتشمئز من ذلك الموقف.

فنجد دواوينه الشعرية:

"أغاني الغرباء ويشتمل على اثنين وعشرين قصيدة قالها الشاعر في السجن، وقد حاول أن يكون صادقا في التعبير عما يعتمل في نفسه، طوال تلك الفترة القاسية التي مرت من عمره، ويحس القارئ بصدى تلك القصائد، وأمانتها في التعبير عن الإنسان المضطهد المعذب[...]. "[2]

كتاب المجتمع المريض:

" وقد سجل فيه تجاربه، ومشاهداته في عالم السجون، وحاول بجد وموضوعية أن ينبه إلى مشكلات السجون، وأن يعرض الحلول المناسبة التي يعتقد أنها ذات جدوى في هذا الشأن ولم يغفل الإشارة إلى أشعار السجناء، والقيم التي تهيمن على ذلك المجتمع المريض."[3]

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص153–154.

[2]– عبد الله بن صالح العريني: الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية، إركنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط2، 2005م، ص22.

[3]– عبد الله بن صالح العريني: المرجع نفسه، ص25–26.

بالإضافة إلى أعماله الروائية والتي تناول فيها موضوع السجن بشتى مظاهره وأسبابه نذكر بعضا منها:

رواية ليل وقضبان، حارة اليهود ،الظل الأسود، طلائع الفجر،ليالي السهاد...

وإن من يعرف نجيب الكيلاني يعرف سيرته، ويعرف مهنته، نتحدث عنه طبيبا في السجن " إما طبيبا موظفا عند الدولة بين فترتي سجنه في السجن، فقد أبو إلا أن يسجنه حتى إذا ما سرحوه وظفوه طبيبا في السجن! وإما مسجونا يتطوع لإنقاذ حالات صحية متدهورة، وهو الطبيب الماهر المتفوق في مهنته ودراسته." [1]

وهكذا قضى نجيب الكيلاني جزءا مهما من حياته طبيبا في السجون.

[1]– المشكاة: نجيب الكيلاني أديبا وناقدا وإنسانا، العدد23، السنة6، مجلة فصلية، 1996م، ص15.

الفصل الأول:

مظاهر السجين

في أعمال الكيلاني.

الفصل الأول: مظاهر السجين في أعمال الكيلاني.

1- السجين السياسي.

-رواية "حكاية جاد الله".

-رواية "في الظلام".

- رواية "رجال وذئاب".

-رواية "عمر يظهر في القدس".

2-السجين العادي.

-رواية "حارة اليهود".

-رواية "ملكة العنب".

3- السجانون.

مظاهر السجين في أعمال الكيلاني:

يعد السجن في الرواية العربية من المواضيع التي لاقت إقبالا كبيرا من طرف الأدباء في العصر الحديث، وذلك كحتمية للموجة الاستعمارية التي اجتاحت البلاد العربية والإسلامية خاصة، وذلك سعيا منهم للتصدي لهذه الموجة الاستعماري واستنكارها ومحاولة نقلها، في صورة يرسم لنا الأديب من خلالها صورة الحرية المسلوبة في أبشع صورها متمثلة في السجن، فما كان منهم إلا أن يجسدوها في رواياتهم.

"لقد صدر خلال العقدين السابع والثامن من القرن العشرين، في الوطن العربي ما يزيد عن ثلاثين رواية، كان موضوعها السجن، وأكثرها يتحدث عن هذه الفترة أو عن تجارب سابقة لها بقليل وهذه الفترة هي التالية لنشوء حكومات محلية في الكثير من البلدان العربية، بعد الاستقلال عن المستعمرة.حين ندرك هذا نشعر بحجم المفارقة التي تسببت فيها الحكومات المحلية لمواطنيها، فخلال الفترة التي سبقت الاستقلال أو زامنته، لم يصدر هذا العدد من الروايات ولا نصفه."[1]

وبذلك يكون هذا التوجه من التزامات الرواية العربية اتجاه قضايا العصر، والتي يمثل السجن أهم قضاياها، سنحاول من خلال عملنا هذا أن نرصد مظاهر السجين في أعمال الكيلاني، وذلك من خلال مجموعة من أعماله الروائية.

وبما أن الإلمام بأعمال الكيلاني الروائية والتي يتجاوز عددها 41 عملا روائيا؛ منها المفقود ومنها ما لا يمكننا الوصول إليه أمرا عسيرا لا يتيسر لنا الإحاطة به؛ سنحاول تسليط الضوء على أهم أعماله الروائية التي تناول فيها السجن.

وسنتعرض لمظاهر السجين في أعمال الكيلاني من خلال ثلاث عناصر محورية؛ تتجسد من خلالها مظاهر السجين في أعماله، وذلك حسب ما ارتأيناه هي:

السجين السياسي والسجين العادي والسجانون.

---

[1]– هادي شعلان محمد البطحاوي: رواية السجن في العراق، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة بابل، 2002م، ص19.

1-السجين السياسي:

لقد كان لتجربة الكاتب في السجن أثرا واضحا في أعماله، وبذلك كان السجن خلفية لكثير من أعماله الروائية، ولا يخفى علينا أنه من أهم الأسباب التي كانت وراء سجن الأديب هي أسباب سياسية في نظر من زجوا به في السجن ووجهوا إليه التهم، ونجد ذلك واضحا جليا في أعماله التي تناول فيها السجن، فربما يعود ذلك إلى تجربته القاسية مع السجن والتي تركت جرحا عميقا لا يشفى في نفس الأديب، وسنحاول أن نرصد السجين السياسي في مجموعة من أعمال الأديب هي: **رواية حكاية جاد الله ، رواية في الظلام، رواية رجال وذئاب، رواية عمر يظهر في القدس.**

1-1- رواية حكاية جاد الله:

تدور أحداث هذه الرواية في السجن، حيث يصور لنا الكيلاني من خلالها حياة السجين اليومية في سجنه، ولعل ما يتعرض له السجين السياسي من معاملات داخل السجن هو ما جعل كثيرا من الأدباء يركزون في أعمالهم الأدبية على إبراز صورة السجين السياسي، والتطرق لها في كثير من أعمالهم، وذلك في ظل الممارسات الدكتاتورية للأنظمة الحاكمة من جهة، ومن جهة أخرى لمبدأ رفض قمع الحريات وممارسة ديمقراطية الشعوب في ظل الشريعة الإسلامية التي تحقق للفرد حريته ضمن أطر محددة.

فالأنظمة الحاكمة ترى الخوض في الأمور السياسية أمرا محظورا يجب الابتعاد عنه، وكل من تساورهم الشكوك من حوله يلقى به في السجن، ليكشف لنا الأديب بذلك عن نظام يحول حياة الشعب لسجن كبير؛ فليس بالضرورة أن يكون الإنسان سجينا في زنزانة حتى يعيش السجن، فقد يعيش السجن في داخله وفي وطنه وبيته، بل وقد يفرض عليه السجن في المساجد وحلقات الذكر وفي حديثه ومواعظه، وهذا لا يعني أن السجين السياسي بريء؛ فقد يكون يستحق السجن كعقوبة رادعة لتجاوزاته، وهنا نشير إلى أن النماذج تختلف فقد يشير

إلى سجين بريء من أجل فضح المؤامرات والأنظمة الفاسدة من جهة ، ومن أجل الإصلاح ومحاربة المتطرفين من جهة أخرى.

من شخصيات رواية **حكايـة جـاد الله** نجد السجين "محفوظ" وهو سجين صاحب سوابق، لـه أساليبه الملتوية من أجل تحقيق غاياته، فهاهو يحاول إقناع جاد الله وهو أحد السجانين من أجل أن يساعده لتحقيق مآربه، في حوار دار بينهما، نقتطع منه ما يلي:

"–(ألم تفكر بعد؟)

–(فكرت كثيرا... لكن..)

–(لكن ماذا؟؟ تزييف العملة سهل جدا.. لا يحتاج لمجهود.. ويدر دخلا كبيرا في أقصر مدة ممكنة..)

–(لكنهم قبضوا عليك يا محفوظ، وها أ،ت تدفع الثمن من شبابك..)

–(أقسم لك... كانت وشاية..)

–(ولم لا يحدث لي ما حدث لك؟)

–(أنت غيري أنت حكومة، ولن يشك فيك أحد.."[1]

وهنا يكشف لنا الكيلاني على لسان محفوظ الواقع النتن الذي أصبح يحيط بنا من كل جانب، والذي يتجسد في أبشع صوره في تجاوزات أصحاب السلطة والحكومة، فحتى هذا السجين الذي لا يعرف من القانون سوى تجاوزه، يدرك حقيقة أن الحكومة فوق القانون ولن يشك أي شخص في من يشتغل لصالح الحكومة، وهنا يشير الكيلاني إلى نقطة مهمة وربما هي السبب الرئيس في تلك التجاوزات التي يقوم بها المجرمون؛ وهي حين يشعر الفرد بغياب العدل، وحين يعم قانون الغاب فيستولي القوي على حقوق الضعيف، هنا لا يجد الفرد الضعيف في قرارة نفسه ملجأ أو سبيلا لتحقيق مبتغاه إلا عن طريق تلك التجاوزات، ويكون ذلك سببا في تفشي الجريمة.

[1]– نجيب الكيلاني: حكاية جاد الله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2001م، ص13.

ليعود الكيلاني من جديد ليؤكد على خبث **محفوظ** ومكره ودهائه حين خاطبه الأنباشي **حسنين** محذرا إياه مما يقدم عليه، فيقول في رده على اتهاماته:

-" (مظلوم.. والله العظيم طول عمري مظلوم يا حضرة الصول..)

-(لا تقسم.. أنا أعرفك..)

-(ربنا غفور رحيم...)

-(هي كلمة واحدة...)

-(تحتَ أمرك..)

-(دع "جاد الله" وشأنه..."[1]

وكما يبدو فإن ألاعيب محفوظ مكشوفة أمام الأنباشي **أبو زهرة**، فحتى ذلك المستنقع العفن نجد فيه أناسا صادقين لا يفوتهم ما في الوسط من عفن، يتصدون له ويقفون في وجه براثن الفساد.

كما يشير الأديب إلى أن أخطر القضايا التي يتم السجن بسببها؛ هي القضايا السياسية، وذلك في حوار يدور بين النسوة وهن ينتظرن دورهن في الزيارة فتقول إحداهن:

-" (ما لنا وللسياسة!! مخطئ من يتصدى للحكومة)

وتضيف أخرى:

-(من ينظر فوق يتعب، فلنرض بما نحن فيه)

وتثور ثالثة قائلة:

-(حكومة فاجرة لا تستحي..)

ويرد شاب متين البنان، كث الشارب قائلا:

-(طائفتان مظلومتان في هذه البلد.. طائفة المخدرات.. والإخوان..)."[2]

وعلى ما يبدو فإن الجميع مدرك بأن الخوض في الأمور السياسية مآله السجن مهما كان الأمر، وكأنما الخوض في السياسة طعن في الدولة والحكومة!! والغريب في الأمر هو

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص44.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص69-70.

أن تتساوى الكفة بين سجين بتهمة المخدرات وآخر بتهمة أنه من جماعة الإخوان المسلمين؛ ليجمع بينهما الأديب ويشير إلى أنهما طائفتان مظلومتان؛ ربما لا يبدو الأمر بذلك السوء لمن يطلع عليه أو يسمع عنه، لكن حين تطال يد الظلم معتقدات الفرد ومبادئه ويتم المساس بها، هنا سيشعر المرء بمدى الإهانة الموجهة إليه ومدى خناق الدولة وسلطتها على الشعب.

وكانت تلك العبارات التي أفصح عنها الكيلاني على لسان شخصياته من النسوة وهن يقلن: " ما لنا وللسياسة!! مخطئ من يتصدى للحكومة " أبلغ ما يمكن أن يصور لنا طبيعة الفكر والمعتقدات التي تجول في أذهان أفراد المجتمع، والتي قد غرستها أنظمة الحكم فيهم وأحكمت سيطرتها على عقولهم.

ونجد الكاتب بعد ذلك يشير إلى تخفي ضابط في حلقة للذكر؛ وذلك بعد أن بدأ القلق يساور أصحاب السلطة، فهم يرون في حلقات الذكر تهديدا لأمنهم من خلال نشر الوعي بين أفراد المجتمع، فوعيهم بدينهم يعني وعيهم بأمور دنياهم وهذا لا يخدم مصالح أولئك الذين يسعون لفرض سيطرتهم وإحكام قبضتهم على الشعب، والتي كان الشيخ البحيري وهو أحد الشخصيات الفاعلة والمساهمة في أحداث الرواية.

لينتهي الأمر بالشيخ البحيري ومن معه إلى السجن، دون أن يدركوا ما الذنب الذي قد اقترفوه!!

وهاهو الضابط في حوار له مع الشيخ البحيري الذي كان يحاول أن يفهم منه سبب مداهمتهم وسجنه هو ومن كانوا معه، يبدي انزعاجه مشيرا إلى حلقة الذكر ساخرا وكأنما أصبحت العبادة والذكر جريمة في حق الحكومة!!

-" (خذهم وضع كل مجموعة في غرفة.. أما الشيخ ف..)

أكمل المخبر قائلا:

-(حبس انفرادي يا أفندم..)

ونادى المخبر عليهم كي يتبعوه، لكن الشيخ البحيري توقف قائلا:

-(أيمكن أن..)

قاطعه الضابط في غلظة:

-(اذهب مع المخبر، واسمع الكلام)

-(لكن..)

صاح فيه بغضب:

-(لا لكن ولا حاجة.. أتظن نفسك في حلقة ذكر أو في المنطقة التعليمية.. أنت في وزارة الداخلية يا بك.. وعندنا هنا لا كبير ولا صغير.. الكل واحد.. وطبعا أنت تؤمن بالمساواة.. توكل على الله..)."[1]

هنا تتضح لنا حقيقة النظام وخباياه المعتمة، التي تسعى إلى فرض سيطرتها واضطهاد كل ما ترى أنه يشكل تهديدا يحول دون تحقيقها لذلك، حتى وإن اضطرها الأمر لاختلاق تهم لا أساس لها من الصحة في سبيل تحقيق مآربها وإحكام قبضتها.

وكما أشرنا سابقا إلى أن السجين السياسي له معاملة خاصة بحسب ما تقتضيه أحكامهم بما يتناسب ومصالحهم، وهم لا يتوانون في إذلاله وتعذيبه والحط من إنسانيته.

فبعد أن سيق الشيخ ومن معه إلى السجن دون سبب وجيه هاهو ومن معه يقضون أول ليلة لهم في السجن ولم يتوانى السجانون في إذلالهم والسخرية منهم في أي فرصة تعترضهم، فها هو أحد الإخوان حين أراد أن يتوضأ ونادى الحارس الذي قد رد عليه ساخرا وهو يقول:

-" (الزعيم يقول لكم تيمموا.. أو يمكنكم تأجيل الصلاة حتى الغد أو بعد غد.)." [2]

فلطالما ارتبط السجين السياسي بالدين، ليحاولوا بشتى الطرق زعزعة إيمانه، لترادف ظلمة السجن وظلمة النفس في داخله؛ ليحيد عن مبادئه ويخضع لسلطتهم ويصبح عبدا لهم، كيف لا وهم يرون في السجين السياسي تهديدا لمصالحهم، وهو السجين المثقف الذي يحسبون له ألف حساب.

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص182.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص183.

فبعد أن تعرض الرجال المحبوسون لضغوط شديدة ولم يتم إثبات أي تهمة عليهم، وتقرر الإفراج عنهم، برروا ذلك بأنها مجرد وشاية وأن ذلك كان لزاما لدواعي أمنية، وقد استغرب الشيخ وهو يسمع ضابطا يقول ببساطة:

-" (لا بد أن توقعوا على إقرار بعدم العودة لعقد مثل تلك الاجتماعات مرة أخرى..)."[1]

هكذا هم أولئك الذين يهددون راحة الحكومة، يجب أن يكونوا دوما تحت أنظارهم، خاضعين لأوامرهم رهن إشارتهم، وكثيرا ما كان السجين السياسي ذا توجه إسلامي وهذا ما نجده في شخصية الشيخ البحيري؛ وهو يعظ الناس ويفقههم بأمور دينهم ودنياهم، ليكون بذلك مثالا للرجل الصالح الحكيم.

1-2- رواية في الظلام:

تدور أحداث هذه الرواية في الفترة الممتدة ما بين 1947م-1952م، فترة ارتباك في شتى الشؤون السياسية والاجتماعية والوجدانية؛ فترة قلق وحيرة، حول مجموعة من المثقفين الرافضين لنظام الحكم الظالم والمستبد؛ الذي كان يمارسه نظام الحكم الملكي، ليمثل فريد مع رفاقه نخبة من هؤلاء الرافضين.

نجد الأديب يصرح في بداية روايته قائلا:

" لكن الحقيقة الكبرى الناصعة هي أن الشعب كان مصرا على النصر، لهذا أخذ يلتمس كل طريق، ويلهث بحثا عن النور...عن حياة أفضل؛ فقد مل العيش (في الظلام)!..."[2]

وهذا ما صرح به فريد -وهو طالب حقوق- في حوار له مع صديقه عبد المجيد، وهو يقول له:

-" أنسيت أننا ثوار؟ ثوار..اِفهم هذه الكلمة الضخمة. وضد من؟؟ ضد الملكية.. والاستعمار.. وأذنابها والثورة نار.. مغامرة.. عمل، ولا مجال للمتمردين."[3]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص188.

[2]- نجيب الكيلاني: في الظلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1994م، ص6.

[3]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص16.

وتبدأ أزمتهم الحقيقية حين تم اعتقالهم؛ وانتهي الأمر بهم في زنزانة ضيقة، يصفها الكيلاني بقوله:

" زنزانة ضيقة تحمل رقم 12، أربعة جدران، (مبلولة)، جردل ماء الشرب، وبرش وبطانية، ونافذة صغيرة، ذات قضبان متقاطعة.."[1]

فبعد أن كانوا يناضلون من أجل تحقيق الحرية، والوقوف في وجه النظام المستبد انتهى الأمر بهم كرقم يضاف إلى زنزانة من زنازين الذلة والمهانة؛ لتنتهي آمالهم وأحلامهم بين جدران السجن وخلف قضبانه.

ولقد كان فريد يشعر بأن جدران السجن تحكم خناقها عليه وتوشك أن تكتم أنفاسه، وعلامات القلق والخوف بادية عليه، مما يحمله المستقبل فيعبر عن ذلك يقوله:

" ما أقسى الحبس الانفرادي وخاصة إذا سيطر القلق على الإنسان وكان ينتظر شيئا ما.. شيئا خطيرا سوف يحدد مصيره..."[2]

وهنا نجد الكاتب يشير إلى السجن الانفرادي؛ وذلك ليس غريبا على السجين السياسي، فتهمته ليست كفيلة بأن تعزله عن العالم الخارجي فحسب بل وحتى عن بقية المساجين؛ كيف لا وهم يرون في ذلك خطرا على إمكانية فرض سيطرتهم وإحكامها داخل السجن، وربما ينقل عدواه بين المساجين؛ فيجر عليهم ذلك تمردا وطغيانا داخل السجن...

وقد طافت بذهن فريد صور سريعة متلاحقة لما مر عليه منذ أن قبض عليه فيقول:

".. سبعة أيام طويلة حتى ليُخَيَلَ إليه أن كل يوم يوازي عاما كاملا لما فيه من الآلام والعذاب وهل ينسى أول يوم؟.. لا يمكن أن ينساه أبدا.. ماذا حدث فيه؟ (يا إلهي ما أقسى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان..) هل يستطيع أن يحصي الركلات والصفعات واللكمات التي تناولت كل جزء من جسمه؟.. والسياط التي كانت تهوي على قدميه وعلى جسده."[3]

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص126.

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص126.

[3]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص127.

كانت الليالي تمر طوالاً في ليل العذاب، يصور لنا الكيلاني من خلالها واقع السجن والقمع الذي يمارس فيه في حق السجين العادي فكيف إن كان السجين بتهمة سياسية.

ليقدم لنا الكيلاني صورة واضحة للاعتقال وللأنظمة الاستبدادية التي تسعى إلى هدم مقاومة السجين وتحطيم أعصابه، ليشير مرة أخرى إلى استبداد هذا النظام؛ وذلك حين سمع فريد خطوات تقترب من الزنزانة فهب واقفا وهو يردد في قرارة نفسه:

" يجب أن أسارع وأقف بانتباه حتى أوفر على نفسي صفعتين أو ثلاثة من كف الجندي الغليظة.."[1]

فقد صار يفكر في تقليص وطأة ما يمارسه السجان عليه من ذلة ومهانة، وقد صار الأمر أشبه بنافلة أو لازمة؛ وهذا جزء مهم من تدجين السجين.

لتسلب من السجين أبسط حقوقه وتسلط عليه شتى أنواع الإهانة والتعذيب من أجل الحصول على اعتراف يرضي أنظمة الحكم الجائرة، فها هو أحد الجنود وهو يصرخ في وجه فريد مسددا إليه نظرات نارية، ويقول بحدّة:

–" سنرى، وستعترف رغم أنفك.. واسمع يا ولد..

– نعم يا أفندم..

– هل أنت موظف أم طالب؟..

– طالب في كلية الحقوق و..

– ملعون أبوك وأبو كلية الحقوق.. لم تجدوا من يحسن تربيتكم يا أولاد الكلب.. وأبوك بما يشتغل؟..

فرد فريد بصوت خفيض:

–فرّاش مدرسة يا أفندم..

– يعني ليس لك من يحميك أو يتوسط أو يسأل عنك ويتوسط لك.."[2]

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص128.

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص132.

فهم يحاولون بشتى طرق التعذيب والإذلال أن يستلوا منهم الاعترافات؛ حتى وإن اضطرهم الأمر للاعتراف بذنب لم يرتكبوه، المهم إفلاتهم من قبضة الجلاد، ولقد كان سؤال الجندي عن مهنة والده ينم عن مسائل كثيرة؛ منها أن هؤلاء الضعاف يلقون عذابا أكبر، لأنه لا أحد متنفذ سيدافع عنهم أو يتوسط لهم.

يشير بعد ذلك الكيلاني إلى الشيخ **بسطويس** حين صاح يسقط الظالم؛ ليشير أحد المحققين لجندي وهو يقول له:

-" الشيخ بسطويس هذا أزهري قح.. اضربوه على رأسه.. إن حشو هذا الرأس عبارات جوفاء عن الحرية والعدالة والمساواة والجمهورية.. اضربوه حتى تخرج هذه الأوهام من مخه المشوش المغرور.."[1]

ليتقدم أحد المحققين ساخرا من البسيوطي وهو يصرخ من شدة التعذيب وهو يقول:

-" يا ولد يا بلال.. يا مؤذن الرسول..[...] بأي حق تعاملوننا هذه المعاملة الوحشية..؟ ألسنا بشرا مثلكم؟

- بل أنت حمر مستنفرة فرت من قسورة يا سيدنا الشيخ.."[2]

تلك هي ضريبة كل من تسول له نفسه الوقوف في وجه الحكومة الظالمة المستبدة، لينتهي الأمر باعتراف فريد الذي لم يستطع الصمود أكثر، أما صديقه عبد المجيد فقد مات من فرط التعذيب؛ فلم يستطع تحمل الألم.

1-3 رجال وذئاب:

تدور أحداث الرواية حول مجموعة من المؤيدين لنظام الحكم في مصر وللنظام الاشتراكي الذي كان يُحْكِمُ سيطرته بقبضة من حديد، وبين معارضي نظام الحكم والسلطة؛ والذين كان مجرد عدم انتمائهم للاشتراكية يجعلهم عرضة لبطش النظام الحاكم، وكل منهم يسعى لإثبات وجهة نظره بطريقته الخاصة، لينتهي الأمر بالمعارضين خلف جدران السجن؛

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص132.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص132.

وهذا الأمر ليس بالغريب فذلك مصير كل من يحاول أن يقف في وجه السلطة. وقد كان الدكتور عادل يمثل الفئة المؤيدة لنظام الحكم واليد التي يبطش بها النظام، أما رشدي فيمثل الجانب الآخر المعارض لنظام الحكم وقد عرف بتوجهه الإسلامي وربما هذا ما جر عليه المتاعب.

لتبدأ محنة رشدي حين عُين عادل رئيسا للتنظيم في الكلية وعينا تترصد كل معارض أو من تحوم حوله الشبهات بشأن إخلاصه للرئيس ولنظام الحكم، وذلك ما أشار إليه الكاتب في الحوار الذي دار بين عادل والرائد حين كلفه بذلك وهو يشرح له طبيعة العمل الذي كلفه به:

" وأخذ يشرح له أيضا تفاصيل العمل والمراقبة والتقارير الدورية، وتسجيل كل صغيرة كبيرة تحدث من الطلبة أو الأساتذة، وركز الرائد بصورة خاصة على التيارات الإسلامية – الإخوان المسلمين– والشيوعيين وأبناء رجال المال والأعمال، وأبناء أسر الإقطاع القديم والأحزاب القديمة.."[1]

فكما يبدو أن كل من له توجه غير التوجه الذي تتبناه السلطة الحاكمة معرض للمتابعة والسجن، فكل من يهدد بقاءها واستمرارها يعد عدوا لها، حتى وإن كان ذلك مجرد عقائد يؤمن بها وأفكار تطرأ على بال صاحبها، وذلك ما نجده حين تم اعتقال رشدي؛ رغم أنه لا ينتمي لأي حزب سياسي ولا لأي تنظيم إلا أن مجرد إيمانه بالحق واستنكاره لما تقوم به السلطة جعلهم يقبضون عليه وهو في المسجد يؤدي صلاته وكما يبدو أن الأمر وشاية، والغريب هو ما قاله عادل عن المكان الذي تم اعتقال رشدي فيه:

–" (لقد قبضوا عليه في وكر سري في حلوان، كان يشارك في تدبير مؤامرة هو والإخوان لقلب نظام الحكم.. ويقال أيضا: أنهم عثروا على كمية كبيرة من السلاح والمنشورات، وخطة لنسف الكباري ومحطات الكهرباء والمياه والسينما.. وأمور كثيرة أخرى..)."[2]

فعلى ما يبدو أن عادل يسعى لتوريط رشدي وتلفيق التهم له وذلك يصب في مصلحته، وليس هو وحسب بل حتى المحقق في غرفة التحقيق كان يحاول استدراجه والإيقاع به، ولم يكن يخفى ذلك على رشدي؛ فهو يدرك أن كلمة واحدة يقولها قد تنزل به

[1]– نجيب الكيلاني: رجال وذئاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط جديدة ومنقحة، 2001م، ص76.

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص106–107.

أسفل سافلين، أو تأخذ به إلى طريق النجاة، وهكذا تبدأ محنة رشدي والليالي الطوال في السجن.

يشير الكيلاني في حوار دار بين فضيلة ووالدها إلى أن سجن جماعة الإخوان ورشدي ما هو إلى تلفيق وتهمة باطلة لفقتها السلطة؛ وأن ذلك كله كان بدافع سياسي لا غير، فيقول لها والدها:

-" لو كانت إدانة الإخوان أكيدة، لحاكموهم علانية، وما لجؤوا إلى الجلسات السرية، والتعذيب الرهيب، ولأتاحوا لهم الفرصة للدفاع عن النفس.. ليس هناك صحيفة واحدة ولا رجل واحد تجرأ أن يدافع عنهم.. وكل الاعترافات المزعومة باطلة-بحكم القانون- مادامت قد انتزعت بالإكراه.."[1]

والغريب أن المعتقلين الذين لا تثبت إدانتهم يتم التحفظ عليهم؛ فلا يطلق سراحهم "وهم الذين لم يقدموا للمحاكمة لعدم العثور على تهم لهم..."[2]

وهكذا فإن تبني اتجاه أو تيار مخالف لما تتبناه السلطة الحاكمة يعد جريمة يعاقب عليها نظام الحكم المستبد؛ فلا مجال للديمقراطيات الشعبية ولا لحرياتها في وسط تحكمه سلطة مستبدة تلقي بكل من يساورها الشك بشأنه خلف قضبان السجن لتذيقه ألوان الذل والعذاب ليكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه معارضتها؛ فإما يصير عبدا لها وعينا على أعدائها وإما يظل عدوا لها تدبر له المكائد وتلفق له التهم لتزج به في السجن.

1-4 عمر يظهر في القدس:

تدور أحداث هذه الرواية حول شخصية عمر بن الخطاب وظهوره في القدس؛ وقد تزامن ذلك والاحتلال الصهيوني لفلسطين، واستنكاره للوضع الذي آلت إليه أوضاع المسلمين، لينتهي الأمر به والجنود يحيطون به من كل جانب هو ومن معه، بعد دوي

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص184.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص202.

انفجار عنيف؛ كان الفدائيون الفلسطينيون من ورائه، لتبدأ قصة عمر الفاروق مع السجن وكل أصابع الاتهام موجهة إليه بشأن الحادث الذي وقع.

فها هو أحد الجنود وهو يوجه الاتهام إليه يشير قائلا:

-" (هذه الجريمة أنتم صانعوها..)

-(وما دليلك؟؟)

-(أنتم عرب أولا.. وتواجدتم هنا ثانيا.. طبيعتكم الغدر والتخريب..)"[1]

نجد في ذلك اتهاما صريحا لعمر على أنه الفاعل، وقد كان تعليلهم لذلك أنه عربي أولا، وتواجده في مكان الحادث أيضا دليل على أنه الفاعل قطعا!! وفي إشارة الكاتب لذلك تأكيد منه على أن هذه الاتهامات مبنية على أساس سياسي إيديولوجي، ينبع من نفس يهودية تمقت العرب والمسلمين خاصة، وكأنما كون أنهم عرب ذلك كفيل بأن يجعل منهم مجرمين..!

كما يشير إلى معاملة السجين داخل أقبية السجن المظلمة، وإلى المتهمين الذين يساقون إلى السجن زمرا زمرا يقول:

" بين ساعة وأخرى يفد الحراس، ويدفعون أمامهم رجالا جددا تحوم حولهم الشبهات، ومن آن لآخر، يجرد رجل من ملابسه، وتنصب على جسده السياط، وتلاحقه الشتائم المقذعة، والمخابرات يمسكون بالأوراق والأقلام، ويكتبون الأسئلة والإجابات، وكأنهم في عجلة من أمرهم، والكلمات التي تتردد هي: (السلاح.. الفدائيون.. المخابئ.. تكلم .. اعترف.. الموت.. السجن.. سننسف بيتك.. سننكل بأختك وأمك..)."[2]

هذه هي حال كل سجين سياسي، تتلقفه ألسنة الاتهام وسياط الجلادين من كل جانب، فحتى وإن لم تثبت إدانته فيكفيه أنه قد سجن لتهمة سياسية؛ حتى وإن لم تثبت فالشبهة كفيلة بأن تبقي عليه سجينا، كرقم يزاد إلى المساجين خلف قضبان الظلم لتنتهك حرياتهم وإنسانيتهم، عزاؤهم الوحيد أنهم مظلومون.

---

[1]- نجيب الكيلاني: عمر يظهر في القدس،مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت، ص43.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص61.

2- السجين العادي:

لطالما ارتبط مفهوم السجين العادي بالمجرمين والقتلة أو المحكوم عليهم بتهمة غير سياسية، وإن هذا النوع من السجناء نجد الكيلاني يتعرض له بشكل أقل مقارنة بالسجين السياسي؛ إن لم نقل أنه لا يكاد يذكره إلا نادرا في أعماله كإشارات عابرة، ربما يعود ذلك إلى كون أن أديبنا قد تعرض للسجن بسبب سياسي وهذا ما جعله يركز اهتمامه على السجين السياسي، وكما أشرنا سابقا إلى أن تناول موضوع السجن ظهر كنتيجة للأوضاع الراهنة آنذاك، والتي فرضتها الظروف السياسية وذلك كحتمية للموجة الاستعمارية وما خلفته من انتهاكات في حق السجين السياسي.

2-1- رواية حارة اليهود (دم لفطير صهيون):

إن طغيان السجين السياسي في أعمال الكيلاني لا يلغي وجود نماذج للسجين العادي، فنجده يشير إليه في روايته "**حارة اليهود**" من خلال عائلة هراري التي قامت بقتل الأب توما بالتواطؤ مع مجموعة من اليهود، رغم الجريمة التي قاموا بها من أجل استباحة دم البادري توما إلاَّ أن السبب الرئيسي وراء قتلهم له هو سبب ديني عقائدي بحت، يرتبط بمعتقداتهم، يرون من ورائه أن استمرارهم يستلزم بالضرورة إزالة كل من يقف في وجه مصالحهم، ويجسدون ذلك من خلال محاولتهم الإفلات من العقاب، ولا يتوانون في إثبات ذلك بشتى الوسائل والحيل ليتمكنوا وقد تمكنوا فعلا في نهاية الأمر.

فبعد أن قتلوا البادري توما هاهو الكيلاني يشير إلى إلقاء القبض على أحد المتهمين في جريمة القتل؛ وهو سليمان الحلاق، في حوار دار بين داوود هراري وهارون، قال هارون:

-"(لقد قبضوا على سليمان الحلاق وساقوه إلى التحقيق..).

صرخ داوود في ذعر:

-(مستحيل كيف تسرب الأمر..؟؟).

-(إلى أين..؟؟).

-(يجب أن نواجه الكارثة لنقضي عليها قبل أن تطبق علينا بجناحيها السوداوين..)

-(ماذا ستفعل..؟؟).

-(سأتصل بسليمان وأمنيه الأماني وأؤكد عليه بألا يعترف بشيء مهما كان الأمر..)."[1]

وبخلاف السجين السياسي، كثيرا ما نجد السجين العادي يشعر بتأنيب الضمير، وذلك بسبب ما اقترفه من جرائم -خاصة أولئك القتلة والمجرمين- فكثيرا ما يُخَيَّلُ إليهم ضحاياهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة بين أيديهم، وكثيرا ما كان يؤرقهم ذلك.

ليشير الكيلاني إلى سليمان وقد أخذ يدق رأسه في هيستيرية وهو يصرخ:

-"(أنقذوني.. أكاد أموت.. الرحمة)."[2]

وتبدأ بعد ذلك سلسلة من الاعتقالات، تم خلالها القبض على المشتبه بهم في جريمة قتل **البادري توما** وخادمه، بعد أن انهار سليمان الحلاق وبدأ بالاعتراف، وكل منهم ينكر ذلك محاولا الإفلات بنفسه من العقاب، وقد تضاربت اعترافاتهم.

ويشير الكاتب بعد ذلك إلى السجين **الحاخام موسى أبو العافية**، وهو يفكر في جريمتهم التي ارتكبوها، وكما يبدو فإن الأمر يؤرقه؛ فهو لا يفكر في الإفلات من جريمته بل في كيفية الوصول إلى الحقيقة، وهو يسأل نفسه ويحاول أن يجيب عن تلك التساؤلات التي أرقته وهو يفكر فيها، عن سبب ارتكابهم لتلك الجريمة؟ وهل حقا ورد ذلك في توراتهم؟

فكان الحاخام بذلك مثالا للسجين التائب عن ذنبه، بعكس **داوود هراري** ومن معه ممن كانوا يسعون جاهدين من أجل الإفلات من جريمتهم، وهم يبدون في كل مرة استنكارهم للتهم الموجهة إليهم؛ وللاعترافات التي قد أدلى بها كل من **سليمان الحلاق ومراد الفتال.**

ويلفتنا الكيلاني إلى واقع السجن النتن والمتردي، وذلك بعد أن صدر أمر بالعفو عن المجرمين الذين تمت إدانتهم في جريمة قتل البادري توما.

---

[1]- نجيب الكيلاني: حارة اليهود، دار الصحوة، ط1، 2012م، ص68-69.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص76.

2-2- رواية ملكة العنب:

تدور أحداث رواية "**ملكة العنب**" في إحدى القرى المصرية وهي قرية "**الربايعة**"، حينما أثار خطيب المسجد **محمد أحمد حسب الله** في خطبة الجمعة قضية الزكاة، حيث أشار إلى أن حقول القرية قد تحولت إلى مزارع للعنب والناس قد أهملت زراعة الحبوب، وبأنهم لا يخرجون زكاة هذه الفاكهة المرتفعة الثمن، وقال بضرورة إخراج الزكاة من أجل حفظ حقوق الفقراء.

ليسود بعده اللغط والجدل حول هذا الموضوع فهنالك من كان يرى أن العنب لا تخرج فيه الزكاة إلا إذا كان زبيبا، وآخر يرى أنها تجوز في العنب الزكاة، ورأى أحد الفقراء المشاغبين أنه إذ لم يأخذوا حقهم بالشرع فسوف يأخذونه بالقيوة، ليعم الهرج أرجاء القرية بعد تلك الخطبة لتنتشر السرقة في كروم العنب، لينتهي الأمر بأحد الفلاحين وهو **مصطفى السلاموني** قتيلا في إحدى مزارع العنب العائدة " **لبراعم**" وهي كما يلقبونها **ملكة العنب**، لتنشغل القرية بعدها بقضية شاب مصري كان يعمل بالعراق وقد قتل، وقد أُرسِلَت جثته ويبدو عليها آثار العنف، مما جعل أهالي القرية ينتفضون في جنازته مما أدى إلى سجنهم، ليتم إطلاق سراحهم بفضل جهود "**براعم**"؛ وذلك بعد أن أُلحق بهم شتى ألوان العذاب.

لتستمر التحقيقات بعدها حول قضية الفلاح الذي وُجِدت جثته في إحدى حقول العنب والتي تعود "**لبراعم**"، ليتوصل أفراد الشرطة إلى الجاني وهو أحد الحشاشين يدعى **كشكل**، ولقد كان ذلك بالتآمر مع زوجة الفلاح المدعوة **محاسن عبد العالي** لينتهي الأمر بهما في السجن.

ويشير الكيلاني إلى **الراعي كشكل** وهو في جلسة تحشيش والدخان يموج في جو الغرفة الضيقة، وهو يقول لأصحابه ملمحا لجريمته:

-" الناس دائما يموتون.. الأشرار والأخيار.. والعالم لا ينقص شيئا.. بل يزيد.. إنني أحل مشكلة تزايد السكان بطريقتي الخاصة تضامنا مع دعوة رؤسائنا وذلك بأن أبتر العضو الفاسد.. هل تفهمون معنى كلامي؟؟."[1]

ولم يطل الأمر به كثيرا حتى كُشف أمره، وقد تم القبض على **الراعي كشكل** وعلى **زوجة السالاموني** والتي كانت شريكته في الجريمة، ويصور لنا الكيلاني اعتقالها واعترافها على **الراعي كشكل**، بعد أن سألها الضابط وهو يقول:

-" أنا كولومبو.. هل سمعت عن كولومبو؟

-لا يا بك..

-قال في خشونة:

-من قتل زوجك؟

وكم كانت دهشة الضابط حينما سمعها تقول:

-الراعي كشكل يا بك."[2]

ليشير الكيلاني بعدها إلى **الراعي كشكل** والذي قد نفى جميع الاتهامات التي وُجهت إليه، لتتم المواجهة بعد ذلك بينه وبين **زوجة السلاموني**، وتثبت بعد ذلك إدانتهما في الجريمة وها هو الراعي كشكل يقول:

-" إثنان أفسدا حياتي، المخدرات والنساء."[3]

وبهذا يكون **الرعي كشكل** مثالا للسجين العادي، والذي تمثله فئة من القتلة واللصوص وتجار المخدرات ومتعاطييها، فعلى ما يبدو فالأفيون قد أفقده صوابه وأغلق منافذ عقله ليجعل منه مجرما، لقد جمع الكيلاني في شخصية **كشكل** بين اللص والمجرم القاتل، وتاجر المخدرات ومتعاطيها ليكون بذلك نموذجا متكاملا للمجرم العادي.

---

[1]- نجيب الكيلاني: ملكة العنب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2000م، ص29.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص128-129.

[3]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص132.

3- السجانون:

إن التطرق للسجين باختلاف أسباب سجنه، وانتماءاته والتهم الموجهة إليه؛ بغض النظر إن كان سجينا سياسيا أو غير ذلك، والمعاملات التي تمارس في حقه، يجعلنا نتوقف عند "**السجان**"؛ وهو الذي يمارس سلطته داخل السجون، وإن كان لجهنم زبانية فزبانية السجن هم سجَّانوه.

بحيث يتطرق الكيلاني وبشكل مفصل في روايته "**حكاية جاد الله**" إلى شخصية السجان المتسلط الظالم الذي يدوس إنسانية كل سجين ليتباهى بوحشيته في شخصية **جاد الله**، فها هو يخبر بذلك متفاخرا وهو يقول:

-" (لقد كانوا يقبلون حذائي هذا...)

- (من؟؟)

- (باشوات... وبكوات... وعلماء... وزعماء، كنت أشويهم بالكرباج وأركلهم بحذائي هذا حتى يعترفوا...)

- (يعترفوا بماذا..)

- (بأي شيء.. نعم أي شيء.. حتى ولو كانوا أبرياء..)."[1]

كما يمكن أن يساهم في تخفيف وطأة التعذيب على بعض المساجين؛ وذلك طبعا بمقابل يتقاضاه منهم مقابل ذلك يقول الكاتب :

" كان يخفف التعذيب عن بعض المعتقلين إذا دفعوا المعلوم"[2]

ليجد السجين نفسه بين قضبان السجن وهي تحتجز حريته وبين سجان يغتصب إنسانيته وكرامته، فإما الذل والمهانة والتنكيل وإما الخضوع التسليم له؛ وفيهما من المهانة ما لا يطاق، لتجتمع ظلمة السجن وظلمة النفس.

---

[1]- نجيب الكيلاني: حكاية جاد الله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2001م، ص19.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص30.

ويوظف الكيلاني في الرواية نفسها شخصية السجان **حسنين أبو زهرة** وهو مثال للسجان الصالح والرجل الطيب، صاحب الحق الذي لا يرضى الظلم، وهنا يتجلى الصراع الأبدي بين نوازع الخير والشر في النفوس البشرية، ليشير الكيلاني إلى جاد الله الذي قد استيقظ على سكر ومعصية، والشيخ حسنين الذي استيقظ من نومه وهو يدعو الله ويصلي:

" وأسرعت بحمل الكؤوس والزجاجة الفارغة وبقايا الطعام، عادت إليه تجره جرا إلى غرفة النوم... بعد ربع ساعة كان يغط كثور ذبيح..".[1]

" أفاق حسنين من نومه على صوت المؤذن يقول (سبحان من أمات الليل وأحيا النهار)."[2]

وفي هذه الصورة التي رسمها لنا الكيلاني اختصار لما يعتري النفس الإنسانية من فساد؛ نفس تطلب الدنيا عبثا دون مبالاة تتجسد في شخصية جاد الله، وأخرى صادقة تقية تخشى الله وتتقيه تتجسد في شخصية حسن أبو زهرة.

لا يختلف الأمر كثيرا في رواية "**رجال وذئاب**" فها هو الكيلاني يصف لنا معاملة السجانين للسجناء وهو يقول:

"جرى العرف في (سجن القلعة) أن يستقبلوا كل وافد بالضرب والبذاءة مهما كان شأنه، ولا يقدم للتحقيق إلا بعد الانهيار التام، وفقدان كل أمل في النجاة..."[3]

ليذكر في موضع آخر وهو يصف بطش السجان وظلمه، بعد أن تم ترحيل المساجين إلى السجن الحربي لتبدأ فصول المأساة من جديد:

" ضرب.. تحقير.. تحقيق.. ورأى في الحربي الأعاجيب.. ألوان شتى من البشر والجنسيات والتنظيمات.. وهناك أباطرة التعذيب الذين تسري أسماؤهم كالأساطير بين الناس منذ سنين..."[4]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص150-151، بتصرف.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص153.

[3]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص197-198.

[4]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص202.

فيصف السجانين بالأباطرة؛ وكأنما السجون قلاع وهم الأباطرة الذين يحكمونها يتوارثونها سجانا من بعد سجان، ليمارسوا سلطتهم وأحكامهم على السجناء بوجه باطل أظهروه في وجه الحق.

وها هو رشدي السجين هو الآخر بعد أن نجا من بطش السجان وأطلق سراحه يصف أيامه في السجن مع السجانين وهو يقول:

-" (الزبانية لا يبتسمون في الحقيقة، بل يقهقهون كالشياطين..)."[1]

ففي وصف الكيلاني لهم على أنهم زبانية وصف دقيق لما يلاقيه السجين على يدي السجان من ظلم؛ تحت وطأة التعذيب التي يمارسها السجان دون حق أو رحمة.

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص227.

الفصل الثانـي:

تجليات السجن

في روايـة "ليل وقضبان".

الفصل الثاني: تجليات السجن في رواية "ليل وقضبان".

1-هذه الرواية والسجن.

- ملخص الرواية.

- السجن موضوعا لهذه الرواية.

2-السجناء في رواية "ليل وقضبان"

-السجين الرئيسي في الرواية.

-باقي السجناء.

3-طاقم السجن.

-السجَّان.

-مدير السِّجن.

1-هذه الرواية والسجن:

1-1-ملخص الرواية:

رواية "**ليل وقضبان**" لنجيب الكيلاني، من الروايات الاجتماعية التي يصور لنا من خلالها واقع السجن والقمع الذي يُمارس فيه على السجين، وأصناف الذل والمهانة التي يتعرض لها داخل أقبية السجون المصرية.

تدور أحداثها في السجن، لتنتقل بعد ذلك إلى المحيط الخارجي والذي يمثله منزل مدير السجن عبد الهادي، والذي تعتبره زوجته **عنايات** بمثابة السجن لها؛ سجن تفرضه عليها حياتها معه، حياة يملؤها الملل والضيق في حياتها النابضة بالأشواق والرغبات، فلا طفل تهتم به وتفكر فيه، دائما تسير الأمور على غير ما تشتهي، فلا فرق بين حياة **عنايات** وزوجها وبين الحياة في السجن؛ أولئك مسجونون بين جدران السجن وخلف قضبانه، وهؤلاء مسجونون داخل عتمة أنفسهم، ويشير الكاتب إلى أنه " كما ارتضى المذنب مصير السجن فقد رضخت عنايات لمصيرها.. ولزوجها."[1]

تبدأ الرواية بوصف المساجين وهم عائدون من الجبل الأسود، فيشير إلى " الطابور الطويل يمضي منهوك القوى، واجم النظرات، والأقدام المتعبة تلامس الحصى والرمل في يأس وملل، وفوق رؤوسهم نار تشتعل، إنها شمس أغسطس التي تنصب عليهم بلا رحمة.. كل شيء من حولهم كان قاسيا رهيبا، السجان الذي يصرخ بهم كي يسرعوا، والحرارة الشديدة التي تشوي الوجوه، والعمل الشاق-تكسير الصخور في الجبل- والظلال النفسية الحالكة التي تجعلهم يعيشون في ليل الأسى الطويل."[2]

ليشير بعد ذلك إلى السجين **فارس**، والذي قد أُودع السجن بسب جريمة قتل، ثأراً لمقتل أبيه الذي قد قُتِل لينتهي الأمر به في السجن.

---

[1]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 2001م، ص15.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص3.

أما السجين **عبد الحميد** فقد سجن بتهمة المخدرات، وهذا الأمر لا يؤرقه كثيرا – بعكس فارس– الذي كان أمر سجنه يؤرقه كثيرا، فكان لا يتوقف عن التفكير فيه.

أما السجين **الشيخ سلامة**، فقد قتل أخاه من أجل الميراث، وصدر في حقه حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة، وقد شهدت عليه زوجة أخيه **نبيهة بنت حسن عرفات**، وكان لا يكف عن ذكر اسمها، ولا يكاد يوجد سجين لا يعرفها؛ من كثرة ما كان يردد اسمها على لسانه، وعلى ما يبدو **فالشيخ سلامة** ليس في حالة طبيعية، فالجميع ينظرون إليه على أنه يهذي أو أنه قد جن، فهو لا يكف عن الهذيان ومخاطبة أشباح غير مرئية، ويحتد في نقاشات وهمية.

ليجمع **الكيلاني** في روايته **ليل وقضبان** بين مجموعة من المساجين، تختلف تهمة كل منهم؛ فمنهم المجرم الذي قتل ثأرا لمقتل والده، والذي وُجِّهت له تهمة الاتجار في المخدرات، وآخر سُجن بتهمة القتل، لكن على ما يبدو فهو غير مدرك لما قد أقدم عليه**!!** وإن اختلفت التهمة والجريمة يبقى السجن واحدا.

ليكون بذلك **الكيلاني** قد جعل من السجن مسرحا لأحداث روايته؛ ليمثل **فارس** ورفقاؤه الحياة وراء قضبان السجن.

والسجن عند **الكيلاني** لا يقف عند هذا الحد؛ فنجده يشير إلى **عنايات خانم**، والتي كانت ترى أن حياتها لا تختلف كثيرا عن أولئك المسجونين خلف أسوار السجن، بل ربما كان ذلك أهون من السجن الذي تعيش فيه؛ فهم قد يسعفهم الحظ ويستعيدوا حريتهم يوما ما حين تنتهي محكوميتهم، لكن سجنها هي لن ينتهي إلا بموتها.

لكنها ستجد سبيلا لتتخلص من سجنها هذا؛ كما فعل ذلك **فارس** أيضا، ليمثلا معا محور الأحداث في الرواية، ليجدا حريتهما بعد ذلك في خيانتهما**!**

تبدأ حرية **فارس** في اليوم الذي يتصل به أحد أعوان السجن؛ من أجل أن يذهب إلى بيت مدير السجن من أجل إصلاح عطل في الكهرباء؛ ليقف على كلماتها المهذبة الرقيقة له؛ كيف لا وهو الذي لم يسمع إلا الشتائم طيلة العشر سنوات التي قضاها في سجنه،

والصفعات تنهال عليه من كل صوب وجانب، حتى كاد ينسى أنه إنسان؛ من فرط ما لاقاه من المهانة والمذلة على أيدي السجانين هناك، لتتطور الأحداث بعدها لتعيد استدعاءه في يوم آخر –حين كان زوجها مسافرا– بعد أن افتعلت عطلا في كهرباء، لتطلب من أحد مسؤولي السجن أن يرسل **فارس** ليصلح العطل، لينتهي الأمر بهما في غرفة نومها، ليصحو **فارس** على صدى كلمات تتراود في ذهنه:

" جريمة الأخذ بالثأر تلك الجريمة القديمة تبدو أمام خياله وكأنها عمل تافه صغير إلى جانب ما أقدم عليه الليلة من خطيئة."[1]

لتستمر معاناة السجناء في السجن، إلاَّ أن فارس أصبح يجد في إثمه ملاذا يهون عليه وطأة ما يلاقيه في السجن من ظلم ومهانة؛ لكن لن يطول به الأمر حتى يشيع أمره في السجن وتخرج رائحة عفنهما تحت تأثير جرعة خمر قد سقته إياها **عنايات**، ويكون ذلك سببا في هلاكهما، وملاقاته لحتفه بعد أن انتشر الخبر وشاع ليصل الخبر إلى عبد **الهادي**، فيقرر الثأر لكبريائه وعرضه ليأمر **الشلقامي** بقتل **فارس**، وفعلا يحدث الأمر كما خططا له ويتم قتله، لكن يحدث ما لم يكن في الحسبان ويُكشف أمر عبد الهادي **والشلقامي** لقيامهما بقتل **فارس**، لينتهي الأمر بهما في السجن في نهاية الأمر، ويعين مدير جديد للسجن ليعود السجن إلى سابق عهده وتستمر معاناة السجناء.

ليكون بذلك السجن رمزا لهذا المجتمع الذي قد عشش الظلم فيه زمنا طويلا حتى باض وأفرخ، ليستمر السجان في بسط سيطرته وظلمه على السجين الذي لا يجد ما يعزيه في محنته سوى صبره على ما يصيبه.

ولقد تحولت كثير من أعمال الكيلاني الروائية إلى أعمال سنمائية منها عمله هذا والمتمثل في **ليل وقضبان** حيث " **فاز بالجائزة الأولى لمهرجان طشقند السينمائي عام 1964م.**" [2]

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص97.

[2]– مجلة بحوث في اللغة العربية: المضامين الاجتماعية في رواية ليل وقضبان لنجيب الكيلاني، محمد مهدي سمتي/ سمانة نقوي، نصف سنوية، جامعة أصفهان، العدد 7، خريف وشتاء 1391 هـ.ش/ 1433–1434 هـ.ق، ص96.

"وكـان عنوانهـا الأصـلي ليـل العبيـد، غيـر أن نجاحهـا الفنـي بعـد تحويلهـا لفـلم بالعنوان الجديد، جعل دور النشر تستقر عليه، وقد طبع منه طبعات غزيرة حقا."[1]

وربما كان عنوانها الأصلي "**ليل العبيد**" أصدق تعبيرا عن الأوضاع التي عايشها السجناء في محنتهم، لتدل لفظة "العبيد" عن مقدار الظلم والقهر المسلطين على السجناء؛ لينطفئ شبابهم بين ظلمة الزنزانة وظلم السجَّان.

1-2-السجن موضوعا لهذه الرواية:

إن الدارس لحياة الكيلاني وأدبه لا يخفى عليه التأثير الشديد لحياته التي مر بها في أعماله الأدبية خاصة منها الروائية، فلا نكاد نجد له عملا روائيا إلا والتمسنا فيه جزءا كبيرا من حياته الواقعية، ونخص بالذكر موضوع السجن في أعماله الروائية، فالكثير من أعماله الأدبية يصلح لأن يصنف في أدب السجون وكما أشرنا سابقا فإن للسجين السياسي حظا وافرا في أعمال الكيلاني، مما يجعلنا أحيانا نتصور أنه يصور لنا ما قد مر به في حياته الواقعية وهو السجين السياسي.

"فقد حفر في نفسه جرحا غائرا لا يشفى، لذلك كان السجن خلفية لكثير من أحداث رواياته، بل كان كأنه شخصية محورية في بعض هذه الروايات."[2]

إن دخول الكيلاني إلى السجن، ومعاناته فيه جعلته يعقد العزم على أن ينقل هذه الصورة المؤلمة إلى رواياته، وفي ذلك يقول: " (قلت لنفسي لو كتب لي الحياة، فإني أعاهد الله أن أنقل هذه الصورة بقلمي للأجيال التي تعاصرني والتي سوف تأتي من بعدي)."[3]

---

[1]– علي محدادي: الاتجاه الإنساني في روايات نجيب الكيلاني، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، 2014م، ص161.

[2]– وجدان يعكوب محمود: الزمان والمكان في روايات نجيب الكيلاني، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها تخصص أدب حديث، الجامعة العراقية، 2011م، ص51.

[3]– نجيب الكيلاني: مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني، الجزء الأول، كتاب المختار، القاهرة، د.ط، 2006م، ص172.

وسنحاول من خلال دراستنا لرواية "**ليل وقضبان**" أن نسلط الضوء على موضوع السجن في هذه الرواية، وكما أشرنا سابقا فإن السجن قد شغل حيزا مهما في أعمال الكيلاني.

فنجد السجن في رواية "**ليل وقضبان**" يبدأ في عنوانها، فهو يشير إلى الليل وما يعتريه من ظلمة وسكون تؤججان شعور الوحدة في نفس السجين، وإلى القضبان التي تأسر حريته، فجمع بين سكون الليل ووحدته وظلمته وبين القضبان التي لا تختلف كثيرا عن الليل وهي تعزله؛ ليعيش في قارة مجهولة بعيدا عن المجتمع، يحيط به سكون الليل البارد من كل جانب، ليؤجج في نفسه الشعور بالوحدة والعزلة.

لنشعر بوقع العنوان في بداية الرواية وهو يصف لنا الواقع المعيش في السجن فيقول: " كانوا عائدين من الجبل الأسود، والطابور الطويل يمضي منهوك القوى، واجم النظرات، والأقدام المتعبة تلامس الحصى والرمل في يأس وملل، وفوق رؤوسهم نار تشتعل، إنها شمس أغسطس التي تنصب عليهم بلا رحمة.. كل شيء من حولهم كان قاسيا رهيبا، السجان الذي يصرخ بهم كي يسرعوا، والحرارة الشديدة التي تشوي الوجوه، والعمل الشاق- تكسير الصخور في الجبل- والظلال النفسية الحالكة التي تجعلهم يعيشون في ليل الأسى الطويل."[1]

نجد في هذه الصورة التي رسمها لنا الكيلاني من البؤس والشقاء ما يرهق كاهل كل سجين ويؤرق راحته؛ فحتى الشمس التي فوقهم وصفها على أنها تنصب عليهم بلا رحمة ولا شفقة؛ كما سياط الجلادين وهي تهوي عليهم، ثم يشير إلى عملهم في تكسير الصخور في الجبل؛ رغم أن الجبل لطالما كان رمزا للصمود والشموخ وللآمال والأحلام، إلا أنه أصبح هنا رمزا للأحلام المسلوبة وللذلة والمهانة، وهم الذين يحطمونها بمعاولهم، ليصبح بذلك السجن بؤرة للعجز القاهر المتربص بهم ليضاعف معاناتهم.

[1]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، ص3.

كما يشير الأديب إلى السجن، وإلى الجو الذي يعتريه، وكل شيء فيه يبدو كئيبا، يبعث الظلمة والضياع في نفس كل سجين فيقول:

" وفي داخل السجن بدا كل شيء كئيبا.. البناية الصفراء ذات النوافذ الصغيرة، المطبخ البدائي ذو المدخنة التي تتقيأ دخانا أسود كالحقد، حتى حوض الأزهار الصغير خلف مكتب المدير تقف زهراته في جمود يثير الأسى، والضوضاء المنبعثة من ورشة النسيج والنجارة والسمكرة ضوضاء قاتلة وكأنها أجراس مبحوحة في سوق للرقيق.."[1]

فنجده يصف دخان المدخنة فيشبهه بالحقد، ذلك الحقد المكظوم في نفس كل سجين، وهو يفكر لو أنه يستطيع الثأر لكرامته، وينقض على **الشلقامي** الذي كان لا يفوت فرصة من دون أن ينكل بهم، حتى البناية عليلة وحوض الأزهار ذاك الذي في مكتب المدير كان يرى أن أزهاره تقف في أسى؛ وكأنما الحياة هنالك خلف أسوار السجن تقف رهن إشارة مدير السجن وسجانيه، شعور رهيب ذاك الذي يعتري السجين في ظلمته، فحتى تلك الضوضاء التي تصدرها الورشات كان يراها قاتلة، وكأنها أجراس مبحوحة في سوق للعبيد! كل شيء يبدو كئيبا يبعث الملل القاتل والذلة والانكسار في نفوسهم.

فنجده يقول على لسان إحدى شخصياته، وهو يخبرنا عن العرف السائد في السجن؛ من أجل عيشة هنية في السجن! فيقول:

" لكي تعيش هانئا في السجن.. يجب أن تكون ذليلا.. اخلع عنك كرامتك عندما تخطو عتبة السجن إلى الداخل.."[2]

على ما يبدو أن السجن لم يعد مكانا لاعتقال المجرمين والمذنبين من أجل تأديبهم، بل أصبح مسلخا لكرامتهم وإنسانيتهم، فأول ما يُسلب من السجين هويته؛ يجرد من اسمه الشخصي ليصبح رقما يضاف إلى بقية الأرقام التي سبقته، أما كرامته فتُسلَبُ على يد أول جلاد يقابله، هكذا هو عرف السجن ودستوره!

ثم يعود ليصف السجن لنا من جديد؛ حين أقبل مدير السجن على المساجين فيقول:

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص9.

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص7.

"حتى تعالت النداءات العسكرية ذات المصطلحات الخاصة، وكلها تنبئ أن حاكم المستعمرة المظلمة يتحرك.."[1]

فنجده يصف السجن على أنه مستعمرة مظلمة؛ يمثل فيها السجين الوطن الذي سُلبت حريته وكرامته بغير حق على يد مُسْتَعْمِرِه، ليعيش السجين في ظُلمتين؛ ظلمة السجن في داخله وظلمة المستعمرة التي يفرضها الجلاد عليه.

كما يشير الكيلاني إلى **عنايات** خانم زوجة مدير السجن، والتي لطالما شعرت بالملل والوحشة والغربة، فلطالما كانت تفكر بذلك الرباط الذي كان يجمعها بزوجها **عبد الهادي**؛ والذي لا حب فيه ولا حتى صداقة مجردة، لتبتسم في مرارة حين ترددت في ذهنها كلمة مأثورة للمساجين:

" (ياما في السجن مظاليم) متسائلة أتراها في السجن مثلهم؟."[2]

يبدو أن السجن موجود خارج أسواره في المجتمع الأوسع الكبير، في بيت **عبد الهادي** وهو مدير السجن، في نفس زوجته **عنايات** التي أصبحت تشعر بأنها سجينة؛ لا يختلف حكم السجن عليها على تلك الأحكام التي تصدر في حق المتهمين، بل ربما الحكم الصادر في حق المتهمين اشد وطأة على الحكم الصادر في حقها، وهي المحكوم عليها بالسجن بغير ذنب أو تهمة موجهة لها.

وها هي **عنايات** تبحث في سجنها عما يواسي حالها وهي تسأل **فارس** أحد المساجين عن سبب سجنه، فدار حوار بينهما فتقول سائلة إياه:

-" لكن قل لي.. لماذا سجنوك..

- طيش الشباب..آه.. النصيب.

- جريمة كبيرة؟!

- قتل.. كان حلا شائنا.. لكنهم قتلوا أبي قبل ذلك..

- لا أتصورك قاتلا.

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص14.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص16.

– لكني فعلتها، وحكم علي بالسجن خمسة عشر عاما.. قضيت عشرة.

فردت دون وعي أو تدبر:

– مثلي...

– ماذا يا سيدتي!!

– أعني أني متزوجة منذ عشر سنوات.."[1]

فنجد **عنايات** تحاول أن تجد ما يواسيها في سجنها، وفي سؤالها عما إن كانت الجريمة التي سجن بسببها فارس كبيرة؟ محاولة ا

لهروب من الواقع؛ وكأنما يجب أن تكون الجريمة كبيرة ليستحق صاحبها السجن، هي لم تطرح هذا السؤال من أجل أن تعرف سبب سجن فارس، إنما كانت تحاول أن تجد لنفسها مبررا لسبب سجنها؛ هذا السجن الذي قد حكم عليها بغير ذنب.

وحين ردت مقاطعة **لفارس** حين أخبرها عن المدة التي قضاها في السجن وهي عشر سنوات، لتقول دون وعي مثلي ثم تعلل ذلك أن لها عشر سنوات منذ أن تزوجت، تأكيدا منها على شدة وطأة هذا السجن الذي تعيشه مع نفسها في كل يوم قد قضته بجانب زوجها طيلة فترة زواجها، فهي ترى أنه لا فرق بين تلك السنوات العشر التي قضاها فارس في السجن، وبين السنوات العشر التي قضتها مع زوجها، ربما سجن فارس كان بالنسبة إليها أقل وطأة من سجنها؛ فهو سيقضي محكوميته ثم يفرج عنه بعد أن تنتهي مدة سجنه، لكن هي قد حكم عليها بالمؤبد؛ فلا خلاص من سجنها إلا بموت عبد الهادي أو موتها.

ونشير هنا إلى أن الكيلاني لم يقف في توظيفه للسجن على الجانب المادي فحسب، بل تعداه ليصبح السجن رمزا للظلم الذي يفقد الإنسان حريته وكرامته، ولتلك الظلمة التي أصبحت ترافقه في يقظته قبل حلمه، وفي نهاره قبل ظلمة ليله؛ فلم تعد الإقامة الجبرية في السجن هي السجن الوحيد في نظر الكاتب، ولذا وظف شخصية **عنايات** ليصور لنا السجن خلف أسواره.

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص44–45.

2- السجناء في رواية" ليل وقضبان":

لقد قام الكيلاني ببناء أحداث روايته " **ليل وقضبان**" بين جدران السجن وخلف أسواره، ليكون السجن مسرحا لأحداث روايته، ويصور لنا من خلالها عالم السجن وما يعتري السجين فيه من شعور بالوحدة واليأس، والظلم الممارس عليه، ويصور لنا من جهة أخرى العالم خارج أسوار السجن؛ وهو لا يختلف كثيرا عن العالم داخله.

والرواية لا تتحدث عن سجين واحد، إنما تدور أحداثها حول مجموعة من السجناء، والذين كما يبدو أن محنتهم قد بدأت مبكرا في مطلع الرواية، فنجد الكاتب يصف لنا حالهم فيقول:

" كل شيء من حولهم كان قاسيا رهيبا، السجان الذي يصرخ بهم كي يسرعوا، والحرارة الشديدة التي تشوي الوجوه، والعمل الشاق –تكسير الصخور في الجبل– والظلال النفسية الحالكة التي تجعلهم يعيشون في ليل الأسى الطويل.. وذكريات نائية تموج في خيالاتهم المكدودة.. ذكريات الأهل والحب والحرية..."[1]

فهم ليسوا سوى طائفة من الضعفاء قد جرتهم الظروف إلى فعل ما فعلوه لينتهي الأمر بهم في أقبية السجن، **فارس** سجين منذ عشر سنوات في السجن بتهمة القتل؛ ثأرا لمقتل والده، وهذا الأمر ما أشد ما كان يؤرقه، **أما محمود** فهو سجين بتهمة الاتجار في المخدرات، وهذا الأمر لا يؤرقه بل ولا يفكر فيه إلا نادرا، أما **الشيخ سلامة** فهو متهم بقتل أخيه، ورغم أنه يبدو خرفا بعض الشيء لكن هذا الأمر يؤرقه؛ فهو لا يكاد يتوقف عن تحميل **نبيهة بنت حسن عرفات** سبب كل ما يعتريه.

سأحاول من خلال عملي هذا أن أتطرق للسجين في رواية " **ليل وقضبان** "، وذلك من خلال تسليط الضوء على السجين الرئيسي في الرواية من جهة، ومن جهة أخرى بتسليط الضوء على بقية السجناء، ولا يمكن أن أتطرق للسجين في الرواية بمعزل عن باقي

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص3.

الشخصيات في الرواية، وعن الواقع الذي يعيشه السجين في سجنه والذي يمثل السجان أهم عناصره الفاعلة؛ والتي تساهم في بناء أحداث الرواية.

2-1- السجين الرئيسي في الرواية:

والذي يتمثل في السجين **فارس**؛ كما أشرنا سابقا إلى أنه قد سجن بتهمة القتل ثأرا لمقتل والده، وها هو **فارس** بعد أن رمقته زوجة المدير بنظرات فيها احتقار، شعر بسببها بالضيق وهو يحاول كتم شهقاته، ثم تنهد متحسرا وهو يقول لصديقه الذي قد لاحظ عليه استياءه وغيظه:

-" (زوجة البك المدير، عندما مررنا بها رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة؛ آه يا عبد الحميد.. إنها شابة حرة جميلة ولا شيء يثقل قلبها عندما رأيتها تذكرت أني قضيت في هذا الليمان عشر سنوات.. سجنت وأنا في الخامسة والعشرين وهاأنذا أتخطى الخامسة والثلاثين..)."[1]

فنظراتها تلك كانت كالسهام التي أصابت كبرياءه ورجولته، رغم أنه لم يلق من **الشلقامي** طول فترة إقامته في السجن غير المذلة والمهانة، لكن هذه المرة الأمر يبدو مختلفا، خاصة وأنها شابة جميلة، ربما لأول مرة يشعر بأنه إنسان، وقد سُلبت منه إنسانيته بعد أن أصابته بنظرات الاحتقار تلك، فحتى في وصفه لنظرة الاحتقار تلك التي قد بدرت منها وكأنما لم يكف تشبيهه لنفسه بالكلاب حتى ألحق بها صفة النجاسة.

ولطالما فكر فارس في الهرب من السجن وهو يتطلع إلى السور الممتد والأسلاك الشائكة التي ترتفع فوقه، فيشير الأديب إلى ذلك الشعور الذي يختلجه والأفكار التي تراوده فيقول:

" لطالما فكر في الهرب!! في الليل حيث الأرق والعذاب والضياع يرسم الخطط، ويضع كل الاحتمالات، ويفكر في الوقت المناسب، ثم يقتنع تمام الاقتناع بخطته، ويصور له وهمه أن تنفيذها سهل ميسور، وفي ساعات قلائل يكون قد أفلت من الحصار القاسي، واندمج في

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص4.

الجموع خارج الأسوار هنا وهناك [...] فإذا ما أشرق الصباح، سقط القناع عن وجه الحقيقة البشعة."[1]

فحتى أحلامه تلك لا تكون إلا ليلا والظلمة تلقي بدجاها على نفوسهم التي يؤرقها السجن، والآلام النفسية تطحنهم طحنا جراء ما يلاقونه من معاملة قاسية تلغي إنسانيتهم ووجودهم، وكأنما ظلمة الليل وظلمة الزنزانة واحدة، فلا يكاد يفرق بينهما فَهُما واحد، لتتقشع تلك الأحلام حينما يشرق الصباح بنوره فتتقشع ظلمة الليل وتتجلى ظلمة السجن، ليجد جدرانه تحيط به من كل جانب، وحتى النور المتسلل إليه لا يتسلل إلا عبر قضبان السجن، ليذكره بمكانه خلف تلك الأسوار الموحشة حيث تكمن الذلة وتتربص المهانة.

وهكذا كانت تمضي أيامه بين أحلام الرجاء وبراثن اليقظة المرة الأليمة، ليغمغم عبد الحميد قائلا:

-" (إن عشر سنوات تميت كل شيء.. حتى الرغبة في الدموع).

فيرد فارس:

-(لكني عشتها بكل ذرة من كياني..)

- هذا هو العذاب بعينه يا فارس.. لو فعلت مثلك لكنت فقدت عقلي منذ زمن بعيد."[2]

وهكذا يظل **فارس** في صراع دائم مع الظلام والنور المخنوق في داخله؛ ظلام السجن الذي يخنقه، ونور الأمل بالحرية الذي يؤرقه، وهو يتطلع لآماله وأحلامه الضائعة.

وها هو يتطلع بنظراته الحاقدة إلى السور الممتد الذي تكلله الأسلاك الشائكة وهو يقول لصديقه **عبد الحميد** :

-" لقد كرهت كل شيء.. كرهت أبي الذي قتله أعداؤنا.. وكرهت أمي التي دفعتني إلى الثأر حتى أنا كرهت نفسي.. تصور!!."[3]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص4- 5، بتصرف.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص5.

[3]-نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص6.

على ما يبدو فإن بيئة السجن بما تكرسه من ظلم واضطهاد ومهانة على السجين، قد جعلت من سجنه جحيما، فلم يعد السجن بالنسبة له سوى مجرد مظهر عقابي ثانوي، والأشد وطأة منه هو ذاك الجحيم الذي يعيشه في داخله، وتلك الانتهاكات التي تمارس في حقه، لتزرع شعور اليأس في داخله وتزيد من محنته.

وكان فارس يتساءل عن الفرق بين قاتل أبيه وبين الشلقامي، الذي كان يذيقهم المذلة والمهانة ألوانا، فكان يرى أن الصفع على القفا دونه القتل، والعجز عن رد الإهانة عذاب ما فوقه عذاب، فيقول في حوار له مع عبد الحميد:

-" أليس أبي أسعد حالا مني؟؟

ليرد عبد الحميد ساخرا:

- لكأنها المرة الأولى التي تصفع فيها.

-لكنها قاسية يا عبد الحميد...

-هل نسيت أننا خارج العنبر.. وأن الشلقامي يستطيع أن يطلق عليك الرصاص بحجة أنك تحاول الهرب.."[1]

أصبح السجن في نظر **فارس** هو **الشلقامي**، هذا الجلاد الذي قد تجرد من إنسانيته ليصبح وحشا يُنغص عليه حياته حتى في سجنه! ليصير رمزا للظلم الذي يُفقد الإنسان حريته ورمزا لتلك الظلمة في داخله، ولا يبدو ذلك أمرا غريبا عنه؛ وذلك في إشارة **عبد الحميد** إلى أن **الشلقامي** يمكنه أن يطلق الرصاص عليهم بحجة محاولتهم للهرب، فلا يكون منهم إلا الرضوخ لأوامره والسكوت عن تلك الإهانات وإلا كانت العواقب وخيمة.

وعلى ما يبدو فإن **فارس** لم يستطع تحمل الأمر أكثر، فما هي إلا لحظات حتى انقض على وجه **الشلقامي** يضربه بعد أن شتمه فيصف الأديب لنا الموقف حين هوى فارس على هذا الباشسجان:

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص8.

" وفي لحظات انقض على عنق الباشسجان وجذبه إليه، ثم رمى به على الأرض، وأخذ ينشب فيه أظافره، كان فارس يتصرف بجنون، لو كان لديه ذرة من عقل لحمل الفول والرغيف وأسرع إلى زنزانته."[1]

يبدو أن **فارس** قد نسي نفسه لوهلة، وظن أنه يستطيع الثأر لكرامته التي طالما داسها الشلقامي، لكن سرعان ما أفاق على وقع ضربات العساكر من كل جهة، ولم يفق من غيبوبته إلا في زنزانته، كانت هذه هي الذكرى العاشرة لسجنه.

يشير الكيلاني بعد ذلك إلى استدعاء **فارس** من أجل الذهاب لإصلاح عطل كهربائي بمنزل مدير السجن، و قد وقف مذهولا مستغربا أمام معاملة **عنايات** زوجة مدير السجن له؛ رغم أنه لم يبدر منها كثير ترحيب، وكل ما قالته له هو كلمة (**تفضل**)؛ ربما بسبب ما كان يلقاه، حتى صارت كلمة تفضل تعج باللطف والترحيب، ليصور لنا الكيلاني الحوار الذي دار بين **عنايات وفارس**، فتقول **عنايات:**

-" هل تفهم في الكهرباء؟

قال فارس دون أن يرفع عينيه عن موطئ قدميها:

- بإذن الله. قضيت في مدرسة الصنائع عامين.

- تفضل.

قالتها ثم خطت صوب مكان التوصيلة في وقار، وصدمت كلمة (تفضل) سمع فارس إنها كلمة رقيقة مهذبة لها وقع في نفسه دائما يساق بالعصا، دائما يتلقى الأوامر ولا يعرف العصيان أو التباطؤ. لكن الست هانم تقول له تفضل، يا له من حلم رائع!! عشر سنوات يا فارس وأنت تعيش في الجحيم..."[2]

فنجد الكاتب وهو يصور لنا الحوار الذي دار بين **عنايات وفارس**، يُمعن في إظهار الآلام النفسية التي تطحن السجين، وتصوير واقع القهر والمهانة الذي سلب منه كينونته

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص11.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص38.

وإنسانيته، حتى أصبح يستغرب ويقف مذهولا أمام أبسط العبارات، لتذكره بعد أن كاد ينسى بأنه إنسان!

ليؤكد على تمكن اليأس منهم، وقد أصبح من المسَلَّم عندهم أنهم ليسوا سوى مجرد رقم يمر في تاريخ السجان، ويظهر ذلك من خلال حوار **فارس** مع **صديقه** محمود وهو يسأله في ملل ويأس، يقول فارس:

-" لماذا خلق الله هذا الجبل؟؟

ليرد عبد الحميد في سخرية:

-ليفنى فيه الحمقى من أمثالنا.

-ولماذا خلق المدير..؟

وقهقه عبد الحميد:

-لأنه عندما خلق الكرباج كان لا بد من أن يوجد من يهوي به على الظهور..

وصمت برهة ثم استطرد: أنت غبي.. تسأل دائما عن أشياء أزلية لا حيلة لنا في تغييرها.."[1]

يبدو أن الجلاد قد نجح في غرس بذور اليأس والاستسلام والخضوع في نفس كل سجين، وقد أمعن الكيلاني في رسمه لهذه الصورة؛ حين سأل **فارس** عن سبب خلق الله للجبل، فرغم أن الجبل لطالما كان رمزا للصمود والشموخ إلا أنه بالنسبة له فهو رمز للمهانة والأحلام الضائعة، وللسياط التي كانت ولازالت تهوي عليهم دون أدنى رحمة ولا شفقة، رمزا للعبودية الممارسة في حقهم، فحتى عبد الحميد حينما ردَّ على سؤال فارس عن سبب خلق المدير؛ فسر ذلك أن خلق الكرباج لا بد بأن يُوجِد من يهوي به على ظهورهم، ليردف أن لا حيلة لهم لتغيير وضعهم؛ وبهذا يكون اليأس قد تمكن منهم حتى بلغ أوجه.

وتستمر معاناة **فارس** في السجن، بين سياط الشلقامي وصفعاته التي كانت تنهال عليه دون رحمة ولا شفقة، وبين ظلمة نفسه التي كانت تؤرقه وهو يفكر في وضعه داخل السجن، هذه التجربة التي تركت في نفسه جرحا دامغا لا يشفى.

---

[1]- نجيب الكيلاني، المصدر السابق، ص66.

ليتم بعد ذلك استدعاء **فارس** للذهاب إلى بيت مدير السجن، من أجل إصلاح عطل كهربائي؛ كانت **عنايات** زوجة المدير هي من افتعلته، وما أشد سعادة **فارس** حينما دُق باب الزنزانة وأخبره السجان بذلك، كيف لا وهو يشعر في قرارة نفسه بالحرية؛ ولو كان ذلك الشعور لوقت قصير، فرؤية **عنايات** ومعاملتها له كان كفيلا بأن ينسيه معاناته في السجن ويعيد إليه الشعور بالسعادة؛ ذلك الشعور الذي قد افتقده لعشر سنين قد مضت من عمره.

وفي استدعاء **فارس** من أجل إصلاح عطل الكهرباء، إشارة من الأديب إلى نقطة مهمة ألا وهي أن هذا السجين قد أصبح ملاذا لهم من أجل أن يصلح العطل ويعيد النور ويخلصهم من عتمتهم؛ رغم أنه يُرمى به في ظلام السجن، ورغم تلك الظلمة التي لطالما عاشها في نفسه وفي سجنه، إلا أنه يبقى لهم الملاذ حين تعتم عليهم دنياهم بعد انقطاع الكهرباء.

ويذهب فارس من أجل إصلاح العطل، وهنالك تحدث وقائع تغير من مجرى الرواية؛ بعد أن تراوده زوجة مدير السجن **عنايات** عن نفسها ، وينجرفا في خطيئتهما التي كان يرى كل منهما أنها الخلاص من السجن الذي كان يعيشه، **ففارس** كان يجد في خطيئته استرجاع لحريته المسلوبة غصبا عنه، منذ عشر سنوات من التنكيل والإهانة؛ كان قد قضاها في السجن يتقلب على نار جلاده يعيش في جحيم دائم.

أما **عنايات** فكانت ترى في ذلك خلاصا من قيود زوجها ولحكم المؤبد الذي صدر في حقها منذ زواجها به، وهاهو فارس يصرخ بصوت عال وهو يقول:

-" عبد الهادي بك ليس هنا، وهي تحبني. ليست هذه أول مرة.. إن سعادة المدير ينام على سرير من المخمل. عندما استلقيت عليه خيل لي أني أغوص في النعيم.."[1]

تلك هي الحرية الوحيدة التي حصل عليها **فارس** طيلة فترة مكوثه في السجن، والتي استطاع أن ينتزعها ويعوض بها ليالي الحرمان التي قضاها في سجنه، لكنها لم تطل به فسرعان ما انتشرت الأقاويل والإشاعات حتى بلغ الخبر مسامع مدير السجن عبد الهادي،

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص146.

والذي قرر الثأر لكرامته وخطط لمقتل فارس، وفعلا كان له ذلك لتنتهي حياة فارس حيث بدأت معاناته؛ بين جدران السجن وخلف قضبانه.

2-2- باقي السجناء:

ويمثل هذه الفئة مجموعة من السجناء أبرزهم السجين **محمود**؛ وهو سجين قد زُج به في السجن بسبب قضية الاتجار في المخدرات، أما السجين **الشيخ سلامة** فقد سُجن بسبب اتهامه بقتل أخيه، ونعرض لهما بإيجاز ما يلي:

2-2-1-السجين محمود:

لقد وظف الكيلاني شخصية السجين محمود، مثالا للسجين العاقل المتريث، الذي لا يبالي بالأوضاع السائدة في السجن، فعلى الأغلب أن فترة مكوثه في السجن جعلته يتعود على العيشة فيه؛ بعكس فارس الذي كان يرى أنه قد سجن ظلما بسبب ثأره لمقتل أبيه، وعلى ما يبدو فإن مكوثه في السجن لا يؤرق راحة باله، وها هو يخبر فارس بذلك وهو يقول له:

-" (إن عشر سنوات تميت كل شيء.. حتى الرغبة في الدموع)."[1]

فهو غير نادم على ما ارتكبه وكان سببا في سجنه، وقد تعود على ذلك، فهو يرى أن الإمعان في الواقع الذي يعيشه ومحاولة التفكير فيه لا يزيد من حالته إلا سوءا، فما كان منه إلا أن يغض البصر عما يجده من معاملة سيئة داخل السجن، وهو الذي يقول **لفارس** حين كان يشتكي حاله طيلة العشر سنوات التي قضاها في سجنه، فيرد عليه عبد الحميد قائلا:

-" هذا هو العذاب بعينه يا فارس.. لو فعلت مثلك لكنت فقدت عقلي منذ زمن بعيد."[2]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص5.

[2]- نفسه.

وعلى ما يبدو فإن محمود يدرك جيدا ما معنى أن يقف السجين في وجه سجانه؛ وما قد يجره ذلك الأمر عليه، وها هو يخبر فارس بذلك حينما انتفض بسبب صفع الشلقامي له وهو يقول له:

-" هل نسيت أننا خارج العنبر.. وأن الشلقامي يستطيع أن يطلق عليك الرصاص بحجة أنك تحاول الهرب.."[1]

فهو يدرك جيدا أن حياة السجين لا تساوي شيئا، وقد ينهون حياته دون أن يرف لهم جفن، ويشير بذلك الكيلاني إلى أن السجن أصبح مركزا للفساد، لا للإصلاح ومعاقبة المجرمين والخارجين عن القانون، فكل التجاوزات مسموحة مادام الجلاد يكرس نفوذه وسيطرته داخل المستعمرة دون رقيب ولا حسيب.

وعلى ما يبدو فإن السجين **محمود** كان هو الآخر يشعر بالضيق والغيظ المكتوم؛ ومهما حاول أن يخفي ذلك إلا أنه قد تمكن منه في لحظة ضعف، فها هو يرد على فارس حين سأله عن سبب شروده وفيما كان يفكر، ليرد عليه قائلا:

-" في السافلة التي خانت العيش والملح.

فيرد فارس:

-لكنها امرأة ككل النساء.

-لكنها زوجتي يا فارس وأم طفلي!"[2]

على ما يبدو أن لكل سجين هم يؤرق راحة باله، وأن الشيء المختلف بين كل سجين وآخر؛ هو مدى تعايشه مع واقعه ومحاولة التأقلم معه، وذلك ما قد أفلح فيه محمود لدرجة تسمح له بالاستمرار في العيش، لتمضي الليالي في سجنه الطويل.

2-2-2-السجين الشيخ سلامة:

أما **الشيخ سلامة** الذي سجن بسبب تهمة قتل أخيه؛ فقد وجد سبيلا آخر من أجل محاولة التأقلم مع السجن، ومحاولة الاستمرار في العيش وتناسي جريمته -التي لطالما اتهم

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص8.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص33.

نبيهة بنت عرفات بأنها السبب في كل ما أصابه– وهي زوجة أخيه، وكان سبيله لتحقيق ذلك هو خرفه، فلطالما كان زملاؤه في السجن يسخرون منه، بسبب صراخه المتواصل وهو يقول أن نبيهة هي التي جَنَت عليه، فها هو حين سأله فارس –ساخرا منه– عن حال نبيهة يرد عليه قائلا:

–" اسمعوا! . إنها تشتمني بنت المركوب.. حسنا سأضع القطن وقطعتي الصفيح فوق أذني، لو كان هناك حكومة لما تركوها تأتي إلى هنا إنها وباء، كوليرا، يمينا بالطلاق إنها كوليرا اخرجي اخرجي.."[1]

أحيانا لا يجد الإنسان سبيلا لمواجهة واقعه، غير الهروب منه ومن مخاوفه، التي لو أطرق السمع لها وجلس يتحسسها لأصيب بالجنون، وها هو مرة أخرى يصرخ بفارس ومحمود حينما سمعهما يتحدثان عن عنايات ، فيقول:

–" اللعنة على بنات حواء.. اتفقت معي على قتل زوجها، ثم شهدت ضدي.. أيها المحلفون إنها القاتلة.. يا حضرة القاضي نبيهة بنت حسن عرفات هي التي دبرت الجريمة، لم أقتله لكنها هي التي سفحت دمه، أقسم.. أقسم أنها وباء أصفر، وأنها تضمر الشر للحكومة، وأنها يهودية بنت يهودي..!"[2]

ليقول مرة أخرى في نفس السياق وهو يسمع فارس وهو يردد أن عنايات تحبه، وأنها تضفي عليه السعادة والهناء كأميرات الزمان، فيقاطعه وهو يقول:

–" نبيهة بنت حسن عرفات كالعفاريت تتشكل بأشكال عدة.. تارة تظهر في صورة كلبه، أو قطة، وتارة أخرى سمكة تعوم في البحر، وحمامة بيضاء تقف على سارية السجن، وأحيانا تبدو في زي امرأة جميلة رائعة الحسن كعنايات هانم. آه يا فارس لقد خدعتك نبيهة بنت حسن عرفات، ألم أقل لكم أنها يهودية بنت يهودي، وأنها وباء أصفر.!" [3]

---

[1]– نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص32.

[2]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص37–38.

[3]– نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص153– 154.

إن توظيف الكيلاني لشخصية **الشيخ سلامة**، على أنه السجين الخرف والذي يهذي في كل ما يقوله، له دلالات ورموز تكشفها لنا نهاية الرواية، والتي تؤكد لنا أن ما كان يقوله **الشيخ سلامة** لم يكن مجرد كلام يلقي به عبثا هنا وهناك، فلقد تحققت نبوءاته بشأن **عنايات** خانم –والتي لطالما حذر فارس منها– وذلك حين كانت السبب في هلاكه، بسبب تجرأه على خيانة مدير السجن مع زوجته، والذي قد جر عليه موته الذي قد دبره مدير السجن عبد الهادي ثأرا منه لعرضه بعد أن قدح في رجولته.

وهنا يشير الكيلاني إلى المقولة التي تقول بأن نأخذ الحكمة من أفواه المجانين، فرغم اتهامهم **للشيخ سلامة** بالخرف والجنون؛ إلا أنه كان أعقل واحد فيهم على ما يبدو وأكثرهم فطنة.

3-طاقم السجن:

3-1-السجَّان (الشلقامي) :

من أبرز رموز السجن نجد السجَّان، وفي الرواية نجد الكيلاني يجسده في شخصية **الشلقامي** (الباشسجان)، وهو والذي يسعى إلى تكريس صنوف الذل والمهانة لإذلال السجين والحط من كرامته، وهو لا يتوانى في تحقيق ذلك.

ها هو الكيلاني يصف **الشلقامي** وهو يوزع الفول المدمس فيقول عنه:

" والشلقامي فوق مقعده يوزع الأرزاق كل في دوره، ولا يكف عن السب واللعن والصراخ بسبب أو بغير سبب.."[1]

ففي قوله عن **الشلقامي** يوزع الأرزاق، إشارة إلى تسلط هذا الجلاد؛ فالذي يوزع الأرزاق هو الله على عباده، لكن هنا الشلقامي استعار لنفسه صفة توزيع الأرزاق على المساجين، وهو لا يكف عن ذلك وحسب إنما يُتبع ذلك بالسب والشتم، فهو الذي يمسك بزمام الأمور في ساحة السجن وفي زنازينه، وهو اليد التي يبطش بها مدير السجن حين يأمر بذلك.

كما يشير الكيلاني إلى ممارسات الاضطهاد التي يمارسها السجان في حق السجين، والتي تعكس مدى تجرد هذا السجان من إنسانيته حتى استحال حيوان؛ لا يُهِمه سوى إحكام قبضته على فريسته؛ وإن كان السبيل إلى ذلك تلفيق التهم والقتل والتنكيل بكل سجين، ليَعْتَبِر كل من تسول له نفسه الوقوف في وجه هذا السجان، فيشير إلى أحد المساجين وهو يخبر زميله عما قد يلاقيه كل سجين تسول له نفسه الوقوف في وجه هذا الجلاد فيقول:

-" هل نسيت أننا خارج العنبر.. وأن الشلقامي يستطيع أن يطلق عليك الرصاص بحجة أنك تحاول الهرب..."[2]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص9- 10.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص8.

ثم يشير **الكيلاني** إلى **الشلقامي** وهو يركل رجلا واهي القوى يزحف نحو الخمسين، وقد صفعه فوقع السجين على الأرض، وعندما انتصب على قدميه عاد فلكمه فسقط مرة أخرى، فنظر إليه السجين بعين دامعة وهو يقول:

-" حرام عليك..

ليرد عليه الشلقامي:

-إخرس يا كلب..

-أنا مثل والدك..

فأخذ الشلقامي يركله في جنون وكأنه قد استعذب ضراعته:

-يا بني.. في عرضك.. أليس في قلبك رحمة؟؟."[1]

فنجد الكيلاني يصور لنا في هذا المشهد ممارسات السجان الوحشية، وحَيونة الإنسان في معاملة أخيه الإنسان؛ وممارساته التي تتنافى وأبسط حقوق الإنسان، ؛ في سلبه أبسط حقوقه وهي العيش بكرامة، وتسليط شتى أنواع الظلم والاستبداد في حق هذا السجين، ليعيش في جحيمين؛ جحيم في ظلمة سجنه وعزلته، وجحيم تستعر نيرانه بيد جلاده.

لتكون بذلك الزنزانة " مسرحا تتحقق فيه مختلف فصائل الاضطهاد والإلزام والمصادرة على شخصية النزيل، ولن تعود الإقامة الجبرية في ذاتها، بالنسبة إليه سوى مظهر عقابي ثانوي وظل هزيل، يمكن تجاهله أو حتى الاستئناس به في أية لحظة."[2]

ويكون بذلك الشلقامي رمزا للاضطهاد والظلم المسلط على الإنسان، ورمزا للسجن في سجنه.

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص67.

[2]- حسن بحراوي: مرجع سابق، ص69.

3-2- مدير السجن (عبد الهادي) :

وكما أشرنا سابقا أن الكيلاني قد اهتم بمشاكل السجون، وما يعتري السجين فيها من ظلم وصنوف القهر والاضطهاد المسلط عليه، من طرف طاقم السجن الظالم والمستبد.

ليشير الكيلاني إلى مدير السجن **عبد الهادي**، والذي ما إن ظهر حتى تعالت النداءات العسكرية ذات المصطلحات الخاصة؛ وكلها تنبئ أن حاكم المستعمرة المظلمة يتحرك، ليصور لنا المشهد وهو يقول:

" تراص السجانون على الجانبين كالتماثيل وأيديهم تحاذي جباههم، وكذلك فعل الضباط، وأطرق السجناء في ذلة لا يستطيعون رفع رؤوسهم أو مجرد الهمس.. وما إن خطا خارج عتبة السجن حتى انزاح الروع والخمود، وعادت الحركة واللغط، وتعالت صيحات المسجونين والسجانين، وساد السجن لون من الحرية.. الحرية بمفهومها الضيق التعس."[1]

من خلال هذه الصورة التي رسمها لنا الكيلاني، لعبد الهادي مدير السجن ولردة فعل السجانين والمساجين حين أقبل عليهم، وكأنما قد أقبل عليهم منادي الصلاة فقاموا جميعا استعدادا لتأدية الفريضة، تلك الفريضة التي سلبتهم كرامتهم ولطالما أهانت وداست كبرياءهم، فحتى السجان هنا تساوى مع السجين في تأديته لفريضته، ثم يشير بعد ذلك إلى انصراف المدير، وما لبث يفعل ذلك حتى عادت الحركة واللغط وتعالت صيحات المسجونين والسجانين، وفي ذلك نوع من الحرية، الحرية بمفهومها داخل أقبية السجن.

هي إذا فرائض قد تعَوَّد عليها السجين، وغرسها نظام الحكم المستبد وجلادوه في نفس كل سجين.

ثم يشير بعد ذلك إلى مدير السجن بعد أن افتعل السجين **فارس** مشكلة وقام بضرب السجان بعد أن قام هذا الأخير بشتمه، لتهوي عليه ضربات من كل صوب حتى لم يكد يرى شيئا من حوله سوى تلك الركلات وهي تهوي عليه، ليتطلع إليه مدير السجن بعد ذلك في احتقار وسيما الاشمئزاز على وجهه، وهو يقول:

-" فاكر نفسك بني آدم..

ليرد فارس قائلا:

-أبدا يا بك...

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص14.

-عشر سنوات ولا تفهم الأصول؟؟

-نسيت نفسي."[1]

فنجد الكيلاني يمعن في إظهار ما يعتري نفس المدير، من خصال تنم عن نفس سقيمة تمعن في إذلال السجين وكتم صوته، فبعد أن داسوا على كرامته وقاموا بإذلاله عاد ليسأله باستحقار مستنكرا إنسانيته، وهو يقول له فاكر نفسك بني آدم؟؟ وفي ذلك إذلال وقهر للسجين ما بعده قهر، فهم يسعون إلى زعزعة إيمانه وغرس بذور اليأس فيه حتى تنموا وتتمكن منه، وعلى ما يبدو أنهم قد أفلحوا في ذلك؛ من خلال استنكار السجين لإنسانيته وهو يقول ردا على سؤاله أبدا يا بك ثم يستطرد قائلا نسيت نفسي.

فهم يعمدون إلى التعذيب والإهانة، وهم يستمتعون بذلك وكأنما يجدون في ذلك متنفسا وتفريغا للكبت الذي يعتريهم.

ثم يشير بعد ذلك إلى **عبد الهادي**، والذي رغم ظاهر بطشه وقوته إلا أنه كثيرا ما كان يشعر في نفسه بالضعف، وقد تمكن المرض منه رغم ماله ونفوذه، وهو يرى المساجين رغم قلة حيلتهم والتنكيل والعذاب المسلط عليهم، ورغم وسائل الإرهاب والتعذيب البدني والنفسي والجوع إلا أنهم يتمتعون بالقوة والصحة، ليقول لزوجته وقد ضاق ذرعا بمرضه:

-" دنيا.. ما سمعت قط أن سجينا أصيب بمرض من هذه الأمراض إنهم يعيشون كالحيوانات، لا زاد غير الفول المَسوس وخضروات البهائم، ونفايات من اللحم والخبز ومع ذلك.. آه... هذا ظلم."[2]

فهو يرى أن هؤلاء المسجونين الذين تذوب قواهم في وقدة الجبل الأسود، وينطفئ شبابهم خلف قضبان السجن وفي ظلمة الزنازين أفضل حالا منه، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الجلاد رغم ما يبديه من قوة وقسوة إلا أنه أضعف من ألئك المساجين، الذين لا حول ولا قوة لهم سوى رجاؤهم بربهم أن يلطف بهم من شر هذا الجلاد الذي قد تسلط عليهم.

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص12.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص17.

ثم يشير الكيلاني بعد ذلك إلى عبد الهادي وقد اشتعلت نار الحقد والثأر في قلبه؛ بعد أن اكتشف أمر خيانة زوجته له، والذي زاد من وطأة الأمر عليه هو خيانتها له مع سجين لطالما كان ينظر إليه باحتقار ولا يفوت أي فرصة من أجل إهانته وإذلاله، فعوقب الجلاد على يد سجينه، هذا السجين الذي قد قدح في رجولته وكبريائه، في بيته وعلى سريره، فقرر أن يقتص لعرضه وشرفه بقتل فارس، لينتهي الأمر به في النهاية في السجن بعد أن كشف أمر قتله لفارس.

ولقد صار الآن يعرف عيانا معنى الشعور بـ الإهانة، ومعنى أن تداس كرامته ويدنس عرضه في عقر داره، لينتهي الأمر به سجينا يقبع تحت رحمة جلاديه، وخلف قضبان السجن وبين جدرانه، بعد أن كان سجَّانا يبطش بالسجناء ويلحق بهم شتى ألوان العذاب والتنكيل.

الفصل الثالث:

بنية المكان والشخصيات

في رواية "ليل وقضبان".

الفصل الثالث: بنية المكان والشخصيات في رواية "ليل وقضبان".

1- بنية المكان.

-المكان في رواية "ليل وقضبان."

-تمظهرات المكان في الرواية.

2- بنية الشخصيات.

-الشخصيات في رواية "ليل وقضبان."

-مظاهر الشخصيات ومقوماتها.

1- بنية المكان:

المكان هو الحيز أو الإطار الذي تتحرك فيه الشخصية الروائية، فنجده يتجسد في لغة الأديب، بحيث لا يمكن أن يقوم نص روائي دون مكان تتجسد فيه الأحداث لتعيش وتنتقل على مستواه الشخصيات،فهو عنصر أساسي من عناصر السرد الروائي.

والعناصر السردية من أجل قيامها تحتاج إلى فضاء مكاني تستند عليه من أجل تشكلها وتفاعلها مع بعضها البعض مشكلة نصا روائيا، إلا أن النقاد لم يستقروا على مصطلح بعينه ، ولم يتفقوا على تقسيم هذا المكان تقسيماً واحداً ، فكلٌ أدلى دلوه في تحديد المصطلح وفي التقسيم.

"المكان هو موقع يعيشه الأديب بعقله ويبقى راسخا في ذهنه، يستحضره في أي لحظة أو موقف، لذلك وجدنا النقاد والدارسين يختلفون في تسميته، فمنهم من أطلق عليه مصطلح "الحيز" ومنهم من تشبث بمصطلح "المكان"، ومنهم من عمد إلى تبني مصطلح "الفضاء" الذي أخذ حقه من الاهتمام والتنظير من قبل الدراسات النقدية الحديثة، أما المصطلح الأكثر شيوعا في الدراسات الحديثة هو الفضاء."[1]

" إن الفضاء الروائي مثل المكونات الأخرى للسرد، لا يوجد إلا من خلال اللغة، فهو فضاء لفظي (Espace verbal) بامتياز، ويختلف عن الفضاءات الخاصة بالسينما والمسرح، أي عن كل الأماكن التي ندركها بالبصر أو السمع، إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب ولذلك فهو يتشكل كموضوع للفكر الذي يخلقه الروائي، بجميع أجزائه وبحمله طابعا مطابقا لطبيعة الفنون الجميلة ولمبدأ المكان نفسه."[2]

أي أن المكان في النص الروائي لا يتجسد إلا من خلال اللغة؛ وهي لغة تختلف عن تلك اللغة الموجودة في المسرح والسينما، فلا ندركها إلا من خلال عالم الكلمات الذي يخلقه الروائي، ليتجسد في كلمات مطبوعة على صفحات كتابه.

---

[1]- عبد العالي بشير: تحليل الخطاب السردي والشعري، ط1، 1994م، ص134، نقلا عن عبد الرزاق علاً، جمالية الفضاء المكاني في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي "للطاهر وطار"، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، العدد 5، 2013م، ص90.

[2]- weisgerber.1978.p.10، نقلا عن حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- المكان)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م، ص27.

"إن الرواية الحديثة خاصة منذ بلزاك، قد جعلت من المكان عنصرا حكائيا بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد أصبح الفضاء الروائي مكونا أساسيا في الآلة الحكائية."[1] بحيث لا يمكن لأي نص روائي أن يخلو من عنصر المكان.

" ومما لا شك فيه أن روائيي القرن التاسع عشر اهتموا اهتماما بالغا بالمكان، بمعنى أن حددوا العالم الحسي الذي تعيش فيه شخصياتهم وجسدوه تجسيدا مفصلا."[2]

"كما يشير كل من(لوتمان، باسلار، ميتيران.. إلخ) في الشعرية الحديثة إلى مبدأ التقاطب، وأنه يمثل المظهر الملموس الذي يصل إلى حدِّه الأقصى من الوضوح المفهومي والنقدي عندما يسمح لنا بوضع اليد على ما هو جوهري في تشكيل الفضاء الروائي، ويخبرنا عن دلالات العناصر الجزئية وتعبيراتها الملموسة ضمن وحدة العمل الروائي بأسره، التقاطب الأصلي (إقامة – انتقال).[3]

والجدول التالي يوضح تلك التقاطبات."[4]

أماكن الإقامة		أماكن الانتقال	
أماكن الإقامة الاختيارية (فضاء البيوت) البيت الراقي/ البيت الشعبي البيت المضاء/ البيت المظلم.	أماكن الإقامة الجبرية (فضاء السجن) فضاء الزنزانة فضاء الفسحة فضاء المزار	أماكن الانتقال العامة (الأحياء والشوارع) الأحياء الراقية الأحياء الشعبية	أماكن الانتقال الخاصة (المقهى)

"إن أحداث الرواية لابد لها من مكان تجري عليه ، والشخصية الروائية تربطها علاقة عميقة بالمكان الذي تتحرك فيه ؛ فكل مكان تشغله الشخصية أو تراه أو تحلم به يشكل

---

[1]– حسن بحراوي: المرجع السابق، ص27.

[2]– سيزا قاسم: بناء الرواية دراسة مقارنة في (ثلاثية) نجيب محفوظ، سلسلة إبداع المرأة، مكتبة الأسرة، 2004م، ص110.

[3]– حسن بحراوي: المرجع السابق، ص39–40، بتصرف.

[4]– حسن بحراوي: المرجع نفسه، ص41.

أهمية في بنية السرد ، أما الراوي فله علاقة متعددة الجوانب بالمكان الروائي ، فهو الذي يأخذ على عاتقه تحديد الإطار الجغرافي الذي تدور فيه أحداث الرواية ،وهو كذلك يقوم بمهمة الوصف ، الذي من ضمن مهامه وصف المكان ، وإذا كان الرواي يروى بصيغة المتكلم ،أي يكون الراوي أحدى الشخصيات الروائية."[1]

بذلك يتم تشكُّل بنية الرواية انطلاقا من العلاقة التي تربط بين عناصرها السردية مجتمعة مع بعضها البعض، وإن هذه العناصر السردية تنشأ وتتشكل مع بعضها البعض، بحيث لا يمكن أن تتشكل الشخصية الروائية في معزل عن مكان تعيش فيه وتنتقل على مستواه، ولا يمكن لأحداث الرواية أن تنشأ في غياب مكان يكون مسرحا لأحداثها.

" إننا ننسى غالبا أن هناك تأثيرا متبادلا بين الشخصية والمكان الذي تقيم فيه، وأن الفضاء الروائي يمكنه أن يكشف لنا عن الحياة اللا شعورية التي تعيشها الشخصية، وأن لا شيء في البيت يمكنه أن يكون ذا دلالة من دون ربطه بالإنسان الذي يعيش فيه."[2]

ومن هنا تتأتى أهمية العناصر السردية في تشكيل بنية النص الروائي.

1-1-المكان في رواية "ليل وقضبان":

وبما أننا بصدد دراسة السجن في الرواية كمكان لإقامة السجين فيه، هذا يعني أننا سنتناول أماكن الإقامة الجبرية والتي يمثلها السجن؛ كمكان يعيش فيه السجين مجبرا.

وفي ذلك نميز مكانين في رواية ليل وقضبان، وهما "**السجن**" و "**البيت**"، وكلاهما يندرج ضمن أماكن الإقامة الجبرية، ليكون بذلك فضاء **البيت** سجنا نفسيا بالنسبة **لعنايات**، أما السجن فهو فضاء حقيقي يتجسد فيه السَّجن.

"وإن الدارس حين يقارن بين حياة الكيلاني ورواياته، يلاحظ التأثير الشديد والملحوظ لحياته الواقعية في أعماله الأدبية ولاسيما رواياته، فنجد ذلك جليا سواء كان ذلك في توظيفه للأمكنة والأزمنة أو في توظيفه لشخصياته.أما من ناحية المكان فقد ظهر ذلك جليا في اختيار الكيلاني للأمكنة التي يتحرك فيها على أرض الواقع، خلفية مكانية تدور فيها أحداث رواياته، حتى لقد أصبحت بعض هذه الأماكن بمثابة الشخصية المحورية في الرواية."[3]

---

[1]- وجدان يعكوب محمود: مرجع سابق، ص145.

[2]- حسن بحراوي: المرجع السابق ، ص44.

[3]- وجدان يعكوب محمود: المرجع السابق، ص50.

ونجد ذلك متجسدا في رواياته من حيث اختياره للأمكنة التي تعيش فيها شخصياته وتتحرك فيها، لتصبح بعض الأماكن هي محور الحدث وذلك ما نجده في توظيفه للسجن، والذي مثل نقطة هامة ومحورية في سير أحداث الرواية، بل هو الحدث في حد ذاته مما يمثله لشخصياته وما يعتريهم على مستواه.

1-1-1-السجن:

مثَّل المكان في الرواية حضورا روائيا ساطعا منذ البداية، إذ نجده يتمظهر لنا من خلال العنوان " ليل وقضبان"، بحيث يشير إلى السجن وقد اختار لذلك القضبان لتدل عليه، فرغم جدرانه التي تعزلهم عن العالم الخارجي وعن المجتمع إلا أنه يرى أن السجن يتجسد في قضبانه.

"إن المتأمل في فضاء السجن، بوصفه عالما مفارقا لعالم الحرية خارج الأسوار، قد شكل مادة خصبة للروائيين في التحليل وإصدار الانطباعات؛ التي تفيدنا في فهم الوظيفة الدلالية التي ينهض بها السجن كفضاء روائي معد لإقامة الشخصيات، خلال فترة معلومة، إقامة جبرية غير اختيارية في شروط عقابية صارمة."[1]

فيحضر السجن في رواية "ليل وقضبان" كمكان للضغط النفسي المسلط على السجين، يُؤجج في نفسه الشعور بالظلم والمهانة والقهر المسلطين عليه في عزلته ووحدته، وبيئة السجن تلك التي تزيد من معاناة السجين كثيرا، فكل ما تقع عليه أعينهم يعمق مأساتهم، فها هو "**فارس**" يقول بعد أن رمقته زوجة مدير السجن بنضرات وجد فيها من الاحتقار ما يؤلم نفسه ويقهرها:

" زوجة البك المدير؛ عندما مررنا بها رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة؛ آه يا عبد الحميد.. إنها شابة حرة جميلة ولا شيء يثقل قلبها، عندما رأيتها تذكرت أني قضيت في هذا الليمان عشر سنوات.. سجنت وأنا في الخامسة والعشرين وها أنذا أتخطى الخامسة والثلاثين.."[2]

---

[1]- عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ط3، 1993م، ص340، نقلا عن حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- المكان)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص55.

[2]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، ص4.

فمن شدة ما لاقاه السجين من قهر وقمع في السِّجن؛ أصبح يرى في نظرات من هم حوله ازدراءً واحتقارا، حتى إنه وصف نفسه ومن معه بالكلاب النجسة وهي ترمقهم بنظراتها، ليمثل السجن بذلك مكانا للضغط النفسي المكرس على السجين حتى استحال كل من هم حوله سجَّانا في نظراتهم وازدرائهم.

" السجن هو نقطة انتقال من الخارج إلى الداخل، ومن العالم إلى الذات بالنسبة للنزيل بما يتضمنه ذلك الانتقال من تحول في القيم والعادات وإثقال لكاهله بالالزامات والمحظورات، فما إن تطأ أقدام النزيل عتبة السجن مخلفا وراءه عالم الحرية حتى تبدأ سلسلة العذابات؛ لن تنتهي سوى بالإفراج عنه."[1]

ففي كل مرة يهوي فيها **الشلقامي** بالضرب على قفا**فارس**، يسترجع ذكرياته الأليمة التي قضاها طول فترة إقامته في السجن، وقد انتفض كيانه قبل أن يتمالك قواه وهو يسمع **الشلقامي** يقول له:

-" تحرك يا بهيم.

وتجمع حقد الدنيا كله في قلبه، الهدية التي يتلقاها في بدء عامه الحادي عشر صفعة على قفاه.."[2]

ليرتبط مفهوم السجن بالقمع المسلط على الإنسان في وحدته وغربته، وما يتركه في نفسه من شعور بالذلة والمهانة.

" فالحدود المكانية التي يفرضها السجن على نزلائه، تكون غاية في الصرامة مما يجعله فضاء معاديا أو ملزما، يقضي بوجود شخصية ما في مكان محدد وثابت يثقلها بالواجبات والمحظورات."[3]

ونجده يرتبط أيضا بمفهوم الكره والثأر والحقد والندم وذلك في قول فارس وهو يتطلع للسور الذي تكلله الأسلاك الشائكة:

"- لقد كرهت كل شيء.. كرهت أبي الذي قتله أعداؤنا.. وكرهت أمي التي دفعتني إلى الثأر حتى أنا كرهت نفسي.."[1]

---

[1]- حسن بحراوي: مرجع سابق، ص55.

[2]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، ص7.

[3]- حسن بحراوي: المرجع السابق، ص67.

فالسجن يعيش في نفسه، وما ذاك السور الممتد والأسلاك الشائكة إلا امتداد للظلمة التي تعتريه في سجنه، وللظلم المسلط عليه، فالسِّجن يحمل كثيرا من الدلالات السلبية، وهو المكان الضيق والمظلم، هذه الصفات جعلت منه مكانا معاديا ومكروها، يثير في نفس السجين الإحساس بالاستلاب، ويؤجج مشاعر الحقد على الجلادين.

" هكذا يمسي الفضاء الروائي الذي يتشكل في عالم السجن حافزا وباعثا على تغيير القيم والتصورات الخاطئة بالمكان، وتأتي الاستطرادات والتأملات التي يدلي بها الكاتب لتدعيم الصورة الطوبوغرافية، وتشحنها بدلالات إضافية لم تكن متاحة في غياب التعليق المنتج."[2]

ليظل كابوس السجن يُلاحق البطل، إلى أن ينتهي الأمر به في بيت مدير السجن وفي سريره ومع زوجته، تلك هي الحرية الوحيدة التي استطاع أن يتحصل عليها طول فترة سجنه، ليتحول بعد ذلك السِّجن من مكان للقهر والتعذيب والشعور بالذلة والمهانة، إلى مكان للحب والأمل واسترداد الحرية المسلوبةمنه منذ عشر سنوات قد مضت.

" على أن السجن وإن كان يراد به في الاستعمال اللغوي السائد ذلك المكان الذي تنعدم فيه الحرية، فإن الروائي يمكنه أن يعطيه في بعض السياقات، بعدا جديدا ودلالة مخالفة وغير متطابقة مع التفسير الاصطلاحي الشائع."[3]

فنجد أن السجن في رواية "ليل وقضبان" يتسم بالظلم والقهر والضغوطات النفسية المكرسة على السجين، والآلام النفسية التي تطحنه وتزيد من وطأة السجن عليه، فكان شعوره بالظلم والقهر وليدا لسجنه.

1-1-2-البيت:

وهو المكان الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، طلبا للاستقرار والأمن، وهناك من يضع البيت ضمن أماكن الإقامة الاختيارية، وذلك كون أن الإنسان يمكنه أن يختار مكان إقامته، لكن هنا في رواية "**ليل وقضبان**" نجده يجسد مكانا للإقامة الجبرية؛ وذلك من

---

[1]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، ص6.

[2]- حسن بحراوي: المرجع السابق، ص60.

[3]- حسن بحراوي: المرجع نفسه، ص63.

خلال شخصية "**عنايات**" التي لطالما رأتفي منزل زوجها السجن الذي يسلبها حريتها، لتعيش في سجن نفسي يتجسد في كل ما تعيشه في ذلك البيت.

فنجده حاضرا في الرواية وهو لا يختلف كثيرا في مفهومه عن السجن، ليرتبط بمعاني العزلة واليأس ووحشة المكان، ذلك الشعور الذي لطالما شعرت به **عنايات** " وسواء أكانت وحدها مع خادمتها أو إلى جوار زوجها فإن مشاعرها لا تتغير، الملل والوحشة وإحساس الغربة هي كل رصيد روحها."[1]

وقد جاء الكيلاني على وصفه كمكان للحدث، حين جمع بين السجين فارس وزوجة مدير السجن، ليصبح ملجأ لهمالاسترجاع حريتهما المسلوبة منذ سنين عبر خيانتهما، فالسَّجان واحد "**عبد الهادي**"؛ وهو مدير السجن الذي طالما كرس الظلم والقهر على السجناء ومنهم فارس، وهو زوج "**عنايات**" والتي لطالما رأته سجَّانا لها.

ليتجسد معنى **السِّجن النفسي في البيت** في قول **عنايات** وقد أخذت دموعها تنهمر وهي تقول لزوجها:

-" هل كتب عليَّ أن أتبعك كظلك؟؟ إني أشعر أحيانا بالرغبة في الانفراد بنفسي، أريد أن أتصرف كما يحلو لي بعض الوقت.. لماذا أجدك صلبا تأبى إلا أن تضع سدا يواجه إرادتي كإنسانة.. أشعرني بحريتي وآدميتي ولو ليومين.. أرجوك. أرجوك.!"[2]

إن هذه الرؤية تتصل بدلالات الكبت والشعور بتقييد الحريات، حتى لقد شعرت بانعدام إنسانيتها، وفي قولها أشعرني بحريتي وآدميتي دلالة على قمة الكبت والمعاناة، وكأنما تعيش في سجن، بل السجن أرحم لها إذ يحقق لها الانفراد الذي تبغي.

ورغم انغلاق البيت إلا أن لحظات الخيانة قد جعلت منه فضاءً مفتوحا على أغوار النفس وآثامها.

1-2-تمظهرات المكان في الرواية:

سنحول أن نقف عند أهم أماكن الإقامة الجبرية، وعلى مميزاتها وأثرها في نفس قاطنيها، وحتى لا تتشعب علينا الأمور ولا ننخرط في كثرة التفاصيل، من أجل ذلك ارتأينا أن نشير إلى الأماكن الرئيسية التي كانت مسرحا للأحداث، متمثلةً في **السجن، البيت،**

---

[1]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، ص15-16.

[2]- نجيب الكيلاني: المصدر نفسه، ص59-60.

الجبل الأسود، ومن أجل ذلك اعتمدنا على الجدولة التالية وذلك حتى يمكننا رصد مميزات المكان وأثره على نفسية نزلائه:

أماكن الإقامة الجبرية	مميزاته	أثرها في نفس نزلائها
السجن	سور ممتد،أسلاك شائكة، أبراج مراقبة،بنايات صفراء، الظلمة، الضيق.	الأسى، الملل، اليأس، الشعور بالذل والمهانة، الحقد الشديد على السجان.
البيت	حديقة صغيرة، غرفة نوم، ممر ضيق، كقصر مهجور، الظلمة.	الملل، الوحشة، إحساس بالغربة، جو خانق، السرير يبدو كنعش كبير.
الجبل الأسود	شمس حارقة، حرارة شديدة، صخور سوداء، صخور البازلت.	اليأس، الملل، ظلال نفسية حالكة.

يوضح الجدول أعلاه أماكن الإقامة الجبرية، وذلك من خلال تقديم الأديب لجملة من الخصائص والمميزات لكلٍ منها، مشيرا إلى ما تتركه هذه الأماكن في نفس قاطنيها؛ متمثلة في **السجن** و**البيت** و**الجبل الأسود**.

حيث نلاحظ من خلال الجدول أعلاه أن الأماكن تتقاطع في عدَّة نقاط؛ منها **السجن** و**البيت** في كونهما يتميزان بالظلمة والضيق، وذلك كون أنها أماكن للإقامة الجبرية، فهي تسعى إلى استلاب كل معاني الحرية، لتُكرس ذلك من خلال ضيقها مما يمنع حرية الانتقال ويُقيدها، أما الظلمة فهي للإمعان في التضييق وإمعان الخناق.

كما يشير إلى **الجبل الأسود** وإلى صخوره السوداء وهي **صخور البازلت**، والمعروف على صخور البازلت أنها صخور بركانية صلبة جدا يصعب تكسيرها، وفي توظيف الأديب لهذا النوع من الصخور في **الجبل الأسود** عدّة دلالات، فتوظيفه للصخور البركانية فيه إشارة لهذا السجين الذي يحمل في داخله حقدا شديدا مكظوما تجاه جلاده، وفي ذلك يُشْبه البركان

الذي يوشك على أن ينفجر من هول الضغط، أما في إشارته لهذه الصخور في صلابتها فربما يريد الكاتب من خلال ذلك أن يشير إلى صلابة هذا السجين وصبره على ما يصيبه في محنته، رغم كل ما يلاقيه في سجنه.

كما نشير إلى أنه رغم تعدد أماكن الإقامة في الرواية إلا أنها جميعا تشترك في كونها تبعث الملل واليأس والغربة والحقد الشديد في نفس قاطنيها، كما نشير إلى أنه رغم أن دور هذه الجدران هو للحماية والاحتواء، إلا أن الجدران هنا أصبحت تمثل العزلة والوحدة، وتكرس الملل واليأس في نفس سجينها، وهو يرى أنها تكتم أنفاسه وتقيد حريته، ليصبح بذلك معاديا للمكان الذي يعيش فيه.

2- بنية الشخصيات:

الشخصية هي العنصر المحرك للأحداث في النص الروائي، إذ لا يمكننا تشكيل نص روائي دون شخصيات، بحيث تتفاوت أهمية الشخصيات وذلك بحسب دورها في النص السردي، لنجد الشخصية المحورية أو المركزية وهي الشخصية الرئيسية في العمل الروائي، بالإضافة إلى الشخصيات الثانوية والتي تساهم هي الأخرى في سيرورة الأحداث، بحيث لا يمكننا الاستغناء عن هذه الأخيرة فهي لا تقل أهمية عن الشخصية المحورية.

" وهناك من حصر مفهوم الشخصية في الدور الذي تؤديه وسمى ذلك بالوظائف التي تقوم بها، أي أنها تابعة للوظيفة حتى ولو تغيرت أسماؤها وهذا ما ذهب إليه بروب، الذي درس الشخصيات في الأدب الشعبي الروسي الذي لا تتغير فيه الشخصيات مهما تغيرت هذه الأخيرة."[1]

" الشخصية هي مصدر من مصادر المتعة والتشويق في القصة، وتعد الشخصية الروائية أحد أبرز العناصر القيّمة في الرواية، فهي مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة."[2]

بحيث لا يمكن بناء نص سردي في معزل عن الشخصيات الروائية، فهي كما أشرنا سابقا العنصر المحرك للأحداث.

فالشخصية " تقع في صميم الوجود الروائي ذاته.. إذ لا رواية بدون شخصية تقود الأحداث وتنظم الأفعال وتعطي القصة بعدها الحكائي...، ثم أن الشخصية الروائية، فوق ذلك تعتبر العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى، بما فيها الإحداثيات الزمنية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي واطراده."[3]

---

[1]- فلاديمير بروب: مورفولوجية الحكاية الشعبية، نقلا عن بوراس منصور، البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار، الروائية: الطموح- البحث عن الوجه الآخر- زمن القلب- مقاربة بنيوية، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة فروحات عباس سطيف، 2010م، ص34.

[2]- غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص562، نقلا عن خنساء الجاجي، شخصيات نجيب الكيلاني، دراسة وصفية تحليلية، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة بشاور، 1428هـ/2007م، ص212.

[3]- حسن بحراوي: مرجع سابق، ص20،

وفيما يتعلق بتصنيف الشخصية الروائية، فهناك تصنيفات عدّة، منها ما يركز على وظيفة الشخصية ودورها في النص وعلاقتها بالشخصيات الأخرى، ومنها ما يهتم بالجانب المضموني.

"وهناك تصنيف يساعدنا على تحليل بناء الشخصية الروائية. وهذا التصنيف (يستند إلى الجانب الشكلي في تحديد مراتب الشخصية داخل الرواية) كما يستند إلى إمكانية العثور على الشيء المشترك بين مجموعة من الشخصيات قبل تعرف خصوصية كل منها."[1]

2-1- الشخصيات في رواية "ليل وقضبان":

يمكن الإشارة إلى أن الكيلاني قد تعرض في رواياته إلى شخصيات مختلفة ومن كل المستويات، ومن كل الفئات الاجتماعية، منها المثقف والمتعلم ومنها الجاهل، منها الطبيب والمريض ومنها المجنون والعاقل والسجين والسَّجان، منها التي تحب الحياة وتقاوم من أجل البقاء، ومنها التي سئمت من عيشتها ترجو الخلاص.

" الشخصية هذا العالم المعقد الشديد التركيب المتباين التنوع... تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود."[2]

هذا هو الطابع العام الغالب لشخصيات الكيلاني، إلا أننا نجده أحيانا في رواياته يركز على نوع خاص في شخصياته وذلك ما نلحظه من خلال روايته " **ليل وقضبان**"، بحيث نجده يصب تركيزه واهتمامه على شخصية السجين، ليحاول الولوج إلى نفسيته وإلى ما يعتريها من شعور في سجنها ومحنتها.

وذلك ربما يعود لكون الأديب قد عايش تجربة السجن في حياته، وقد تركت أثرا كبيرا في نفسه، مما جعله يجسدها في رواياته ومن خلال شخصياته والتجارب القاسية التي عاشتها شخصياته هي الأخرى في رواياته، وبذلك يكون الكيلاني قد استمد شخصياته من الواقع الذي عايشه.

" إن استحالة مغادرة النزلاء لعالم الإقامة الجبرية بحسب الرغبة سيولد لديهم شعورا بالعجز التام، أمام غياب كل إمكانية لاختراق هذا الفضاء الموصد، مما سيجعل مواقفهم

---

[1]- سمر روحي الفيصل: الرواية العربية البناء والرؤيا-مقاربات نقدية-، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003م، ص136.

[2]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، 1998م، ص73.

تبريرية كثيرا أو قليلا، وسينعكس كل ذلك الشعور على معنوياتهم وقدرتهم على المواجهة، فتجد الواحد منهم يعاني من العزلة والإحساس بالذنب فضلا عن افتقاد الحرية."[1]

وذلك ما نجده في شخصية فارس وهو يقول: " لقد كرهت كل شيء.. كرهت أبي الذي قتله أعداؤنا.. وكرهت أمي التي دفعتني إلى الثأر حتى أنا كرهت نفسي..[2]

" وفي الحقيقة، فإننا لا نعثر على هذا الشعور أو شبيه به لدى فئة النزلاء السياسيين أي أولئك المعتقلين في قضايا سياسية أو وطنية، لأن هؤلاء يكونون في العادة من الوعي والصلابة والإرادة، بحيث يحوِّلون فترة إقامتهم في السجن إلى فرصة للاتصال والاحتكاك، واستكمال التجربة النضالية على نحو ما[...]، وإنما نلمس هذا الإحساس القاهر بالعجز في الغالب لدى سجناء الحق العام، الذين تكون الجرائم والمغامرات هي التي ساقتهم إلى أقبية السجون لقضاء مدة عقوبة قد تطول وقد تقصر."[3]

وفي ذلك نجد شخصية فارس وهو يتطلع إلى السور الممتد والأسلاك الشائكة التي ترتفع فوقه، وأبراج المراقبة من حوله وهو يفكر في الهرب، ليشير إلى صديقه وهو يعلق على المدة التي قضاها في السجن فيقول:

"-(إن عشر سنوات تميت كل شيء.. حتى الرغبة في الدموع).

ليرد عليه فارس فيقول:

-(لكني عشتها بكل ذرة في كياني..)."[4]

وفي ذلك إشارة إلى مدى الإحساس بالعجز والقهر اللذان يعتريان نفس السجين.

ثم يشير إلى تفكيره المستمر في الهرب ويصور له وهْمُه أن تنفيذ ذلك سهل ميسور وهو يتخيل ذلك فيقول:

"وفي ساعات قلائل يكون قد أفلت من الحصار القاسي، واندمج في الجموع خارج الأسوار ثم يجري هنا وهناك، ويركب العربات التي يراها تمر من بعيد، ويسبح عابرا الترعة الكبيرة.. ثم تنتهي الرحلة-المغامرة- إلى الإفلات من قيود السجن.. وينام (فارس) هادئا،

---

[1]- حسن بحراوي: مرجع سابق، ص61-62.

[2]- نجيب الكيلاني: ليل وقضبان، ص6.

[3]- حسن بحراوي: المرجع السابق، ص62، بتصرف.

[4]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص5.

وطيوف الأمل تداعب أحلامه.. فإذا ما أشرق الصباح سقط القناع عن وجه الحقيقة البشعة، وذابت أمنياته في الخلاص والتحرر، وتسربت الحسرة إلى قلبه الكسير."[1]

" بهذه الطريقة إذا يجري تثبيت العجز الناجم لدى النزلاء، عن انغلاق المكان واستحالة اختراقه وذلك في محاولة لتغطية مشاعر الإخفاق التي تعتريهم، بغطاء تبريري يقوم أساسا بالتأكيد على الطبيعة المغلقة والصارمة لهذا الفضاء الذي يحجب عنهم أفق الحرية."[2]

ليعيش السجين بين حلم الحرية المترَقب وكوابيس السجَّان المُتَرَصِّد، فحتى الأحلام أصبحت عبئا يرهق كاهله من توالي الخيبات بعد كل حلم يراوده، ليصحو على واقع مرير يسقيه فيه السجان العذاب ألوانا.

2-1-1-شخصية فارس:

نجد الكيلاني يوظف شخصية فارس في صورة السجين المتطلع إلى الحياة خارج أسوار السجن، وهو الذي حكم عليه بالسجن بسبب جريمة قتل كانت وراء سجنه وضياع حريته.

وإن جوع **فارس** وظمأه إلى الحياة يزداد حدة بمرور الأيام التي يقضيها في سجنه، وهو الذي كان يبحث له عن منفذ يخرجه من سجنه وهو يفكر في الهرب دائما، لكن هذه المرة قد تحققت حريته لكن بشكل لم يكن يتوقعه، وذلك من خلال علاقته الآثمة مع **عنايات** زوجة مدير السجن، لتمثل بذلك علاقته الآثمة امتدادا لجوعه الكبير للحرية واشتهائه الكبير لها.

إن في هذه المرأة -كما في الحرية- شيء يملكه ويأسره، ولطالما تمنى أن ينالـه كسبيل للخلاص من سجنه، ومن الظلمة والقهر والعذاب الذي قد أذاقه إياه السّجان ألوانا طيلة فترة سجنه، والذي لطالما شعر بجدران السجن وهي تكتم أنفاسه، وقد وجد في معاملة **عنايات** له ما يمحو ما قد عَلِقَ بروحه من آثار السجن ومعاناته طيلة العشر سنوات.

" وقد تسلل إلى قلبه الفخر والاعتزاز. لقد اعتلى القمة التي لا مكان فيها لغير السادة الكبار. إذا فهناك مكان لأمثاله يستطيع الصعود إليه ولو عن طريق الخطيئة."[3]

---

[1]- نجيب الكيلاني: المصدر السابق، ص5.

[2]- حسن بحراوي: المرجع السابق، ص62.

[3]- نجيب الكيلاني : ليل وقضبان، ص99.

فالكيلاني يصور لنا من خلال شخصية فارس السجين، وما يمكن أن ينشطر عن النفس الإنسانية التي تعيش في كبت وانغلاق تامين وسط القهر والظلم المسلطين عليها، فإما أن يزيدها ذلك إيمانا وتمسكا بمبادئها والصبر على ما يصيبها في محنتها، وإما أن تصبح شخصية آثمة تبحث عن ملاذ يخلصها مما هي فيه ؛ وإن كان ذلك بالوقوع في الآثام وهذا ما اختاره فارس لنفسه من أجل الخلاص من محنته.

2-1-2-شخصية عنايات:

أما عن شخصية **عنايات** فهي لا تختلف كثيرا فيما عاشته عن فارس، فجعل الكيلاني من كل منهما للآخر الحرية والخلاص، وكل منهما يمثل الملجأ للآخر في وحدته وعزلته وحرمانه، فنجده قد جعل عدد سنوات سجن فارس هو نفسه عدد سنوات زواج **عنايات** من عبد الهادي مدير السجن، وكأنما حكم عليهما بالسجن لنفس المدة وفي نفس الوقت وعلى يد سجَّان واحد، ليجعل خلاصهما في علاقتهما الآثمة وفي ذلك انتقام لحياتهما التي سلبت على يدي هذا السجان.

إن **عنايات** تعيش حياة عادية هادئة مملة، عالمها الذي يحصر اهتمامها بزوجها وعلاجه، وهي تعاني هذا الفراغ الذي يَغْشَى حياتها، بسبب حرمانها من الحب ومن طفل يملأ حياتها ويشعرها بأمومتها ويكون سببا لحياتها.

إلى أن يظهر **فارس** أمامها فتشعر حينها أنها قد وجدت ملاذها، رغم أنها فيما بعد وهي تفكر به تشمئز منه كون أنه سجين مجرم، إلا أنها لم تستطع أن تصرف فكرها عنه، وذلك امتداد لشعورها بالوحدة والملل واليأس وهي لا تبحث إلا عمن يملأ ذاك الفراغ الذي يملأ روحها.

كما يشير الكيلاني إلى أنها لم تدخر أي جهد من أجل الحصول على تلك الحرية المزعومة، فنجدها في كل مرة تقوم بقطع توصيلة الكهرباء من أجل استدعاء **فارس** لترضي رغباتها الآسنة بعد أن تمكنت غرائزها منها.

لتعقد مقارنة بعد ذلك بين زوجها وفارس، فرغم نفوذ زوجها وقوته إلا أنه لم يقدم لها شيئا، بعكس فارس الذي لطالما كان مثالا للظلم والقهر المسلطين عليه واليأس المتمكن منه، إلا أنها وجدت فيه ما كان ينقصها لتشعر بوجودها.

وهو الآخر كان يرى في **عنايات** الملاذ لنفسه المنكسرة، ومن جهة أخرى نجد **عنايات** مثالا للوحدة والعزة وللحياة الرتيبة وللحرية المسلوبة، وقد رأت في **فارس** حريتها المنشودة وآمالها المفقودة.

2-2-مظاهر الشخصية ومقوماتها:

يُشَكِّل الكاتب لدى القارئ صورة حية لشخصياته، وذلك من خلال أوصاف يقدمها الكاتب ويمدنا بها من حين لآخر، تساعدنا على تصور الشخصية، فيبرز لنا جملة من الخصائص والصفات من أجل تحقيق ذلك.

وحتى لا ننخرط في كثرة التفاصيل، ارتأينا أن نقف عند الشخصيتين الرئيسيتين وهما بطلا الرواية "**فارس**" و "**عنايات**"، وشخصية "**الشيخ سلامة**" ونستخدم الجدولة التالية من أجل توضيح مظاهر الشخصيات وإبراز مقوماتها:

الأبعاد			**فارس**
البعد الجسمي (الوصف الخارجي)		أ-الجسم	شاب في مقتبل العمر، أسمر ذو بشرة نحاسية.
		ب-العمر	عندما دخل السجن كان عمره خمس وعشرون سنة سنه وقد قضى عشر سنوات في السجن.
		ج-الثياب	ثياب زرقاء مخصصة للمساجين.
		أ- البيئة	من إحدى القرى بمصر، قُتِل والده على يد أعدائهم ووالدته هي من دفعته للثأر.
		ب-الذكاء	لا يبدو عليه الذكاء، فلقد كان كل همه الخلاص من سجنه الذي أودع فيه بسبب تهوره.
		ج-الثقافة	على ما يبدو فهو غير متعلم وذلك من خلال حواره السطحي والتافه في غالب الأحوال.
		1-المزاج	يعيش في بؤس داخل

البعد النفسي الاجتماعي (الوصفي الداخلي)	الجانب الانفعالي الوجداني		زنزانته، يفكر دوما في الهرب والخلاص.
		2-الانفعالات	سريع الانفعال، فكثيرا ما كان يفكر في قتل السَّجان لينقض عليه في إحدى المرات دون وعي منه.
		3-العواطف	متقلبة كمزاجه، في بداية الرواية كان يائس لا يشعر إلا بالحقد الشديد تجاه الجلاد، لكن بعد أن تعرف على عنايات زوجة مدير السجن أصبح يرى الدنيا بعين حالمة.
		4- الطباع والصفات	لا تبدو عليه خصال التريث والصبر، ويبدو عليه الطيش والتهور.
الغاية	الخروج من سجنه مهما كلفه الأمر.		
الدافع	القهر والظلم المسلط عليه في السجن.		
الوسائل	الخيانة، والتعبير عن استيائه في كل مرة يواجه فيها ظلم السَّجان.		
علاقته بالآخرين	جمعته علاقة صداقة مع السجين محمود، وجمعته علاقة آثمة مع عنايات زوجة مدير السجن.		

الأبعاد		**عنايات**
البعد الجسمي (الوصف الخارجي)	أ-الجسم	فتاة في مقتبل العمر ذات وجه فاتن.
	ب-العمر	لم يذكر الكاتب ذلك، لكنه يشير إلى أنها شابة في مقتبل العمر.
	ج-الثياب	لم يذكر ثيابها إلا وهي واقعة في آثامها مع فارس السجين، ليشير إلى لباسها الذي يبرز مفاتنها.
	أ- البيئة	نشأت في بيئة محافظة، كرامة الأسرة فوق أي اعتبار، عرفت نساؤها بالوفاء النادر والطاعة

البعد النفسي الاجتماعي (الوصفي الداخلي)			العمياء.
	ب-الذكاء		هل على قدر من الذكاء والفطنة والدهاء، تبحث عن ملاذ يخلصها من سجن زوجها.
	ج-الثقافة		أشار الكاتب إلى أنها متحصله على شهادة البكالوريا، وعلى أنها على قدر من الثقافة والوعي وذلك من خلال نقاشاتها مع زوجها، والذي لم يكن يجد ردا مناسبا لها وكان يكتفي بالتهرب من الإجابة.
	الجانب الانفعالي الوجداني	1-المزاج	تعيسة في حياتها، هادئة في ظاهرها متمردة في قرارة نفسها.
		2-الانفعالات	يبدو عليها الهدوء والتريث، قليلا ما كانت تبدي انفعالاتها وكانت تتقصد ذلك.
		3-العواطف	تحمل في قلبها كرها شديدا لزوجها، التي كانت ترى دوما أنه قد سلب منها شبابها، لكنها أصبح تنظر للدنيا بعين حالمة وقد وجدت الملاذ في آثامها.
		4- الطباع والصفات	يبدو عليها الصبر والتريث في ظاهر ما تبديه.
الغاية	التحرر من سجنها الذي كانت تشعر به في حياتها مع زوجها.		
الدافع	شعورها بالتعاسة في حياتها مع زوجها، الذي لطالما شعرت أنه قد حرمها السعادة وحرمها شعور أن تصبح أما لطفل يؤنس وحشتها.		
الوسائل	التمرد والخيانة، فكانت تلجأ لقطع أسلاك الكهرباء لتستدعي السجين فارس من أجل أن تمارس آثامها.		

علاقته بالآخرين	كل ما كان يربطها بزوجها هو عقد الزواج الذي حكم عليها بالسجن، والذي لم تكن تشعر تجاهه سوى بالحقد والكره. أما السجين فارس فكانت تربطها به علاقة آثمة.

الأبعاد			**الشيخ سلامة**
البعد الجسمي (الوصف الخارجي)	أ-الجسم		شيخ طاعن في السن بعوده القمئ وكرشه المتقدم، ذو لحية بيضاء
	ب-العمر		لم يشر الكاتب إلى ذلك لكنه قال أنه شيخ طاعن في السن.
	ج-الثياب		ثياب زرقاء مخصصة للمساجين .
البعد النفسي الاجتماعي (الوصفي الداخلي)	أ- البيئة		لم يشر الأديب إلى ذلك إلا إلى كونه قد قتل أخاه بإيعاز من زوجة أخيه.
	ب-الذكاء		يبدو عليه الخرف، وهو يهذي دوما بكلام جعل ممن هم حوله يسخرون منه.
	ج-الثقافة		رغم ما يبدو عليه من خرف إلا أن في كلامه شيء من الحكمة والصواب.
	الجانب الانفعالي الوجداني	1-المزاج	يعيش في قلق يؤرقه بسبب اتهامه بقتل أخيه.
		2-الانفعالات	سريع الانفعال، فكثيرا ما كان ينتفض ويصرخ في وجه من هم معه في الزنزانة.
		3-العواطف	شعوره بالظلم وأنهم قد افتروا عليه.
		4- الطباع والصفات	يبدو عليه الخرف، ولطالما كان رمزا للسخرية.
الغاية	لم يصرح الكاتب بغايته.		

الدافع	افتراؤهم عليه في جريمة قتل أخيه .
الوسائل	حديثه الدائم وهذيانه وانتفاضته .
علاقته بالآخرين	لم تجمعه علاقة بمن هم حوله سوى تلك التي كانوا يسخرون فيها عليه وهو يهذي .

يوضح الجدولان أعلاه مواصفات كلا الشخصيتين الرئيسيتين، ومقوماتهما التي تميزا بها من خلال توظيف الكيلاني لهما، وهما "**فارس**" و "**عنيات**".

نلاحظ من خلال الجدولين عدَّة صفات ومقومات مشتركة بين الشخصيتين، كونهما شخصيتين عاشتا في بؤس وحزن كل في سجنه الخاص، وكلاهما يشعر بالحقد الشديد اتجاه شخصية عبد الهادي الجلاد والزوج، لنجد غايتهما واحدة وهي التحرر من سجنهما، فنجد **فارس** يسعى للتحرر من قيد سجانه، أما **عنايات** فهي تسعى للتخلص من سيطرة زوجها، وقد اجتمعت الدوافع في الشعور بالتعاسة والظلم.

إلا أننا نجد الشخصيتين تختلفان من حيث البيئة التي نشآ فيها، "**فعنايات**" نشأة في بيئة محافظة تتشبث بأخلاقها ومبادئها مهما كلفها ذلك، بعكس **فارس** الذي قد دفعته أمه إلى القتل ثأرا لموت والده لينتهي الأمر به مجرما خلف قضبان السجن.

كما نجد شخصية "**عنايات**" تتميز بالذكاء والفطنة والصبر والتريث، وذلك بخلاف شخصية فارس الذي لا تبدو عليه صفات الذكاء والذي لطالما بدت عليه صفات الطيش والتهور.

أما عن "**الشيخ سلامة**" فنجد الكاتب يوظفه دون الإفصاح عن غايته ودوره في الرواية، ورغم سمات الخرف التي كانت بادية عليه إلا أنه كان يبدو حكيما فيما كان يقوله، وذلك من خلال تحقق نبوءته بشأن ما كان يتنبأ به لفارس؛ وهو يحذره من **عنايات** في صورة نبيهة بنت حسنين.

كما نشير إلى اسمه "**سلامة**" فالأديب تقصّد أسماء شخصياته، ولا أظن أن تسميته له بهذا الاسم كان اعتباطيا، فاسم **سلامة** مناقض لما تحمله الشخصية من صفات الخرف والهذيان، وربما يكون **الشيخ سلامة** ضمير الكاتب المستتر خلف صفات الخرف والجنون، فلم يستطع الإفصاح عن نفسه ، فنجده يخفيها خلف هذه الشخصية.

"عادة نجد أن الشخصية تملك لقبا، وفي بعض الأحيان اللقب يحمل بمفرده شحنة ودلالة رمزية مكثفة."[1]

وهذا ما يبدو من وراء شخصية الشيخ سلامة، فحتى في جعله شيخا إشارة إلى التجربة الطويلة لهذا الإنسان مع الحياة، والتي قد أكسبته من الخبرة والحكمة والمعرفة ما يجعل منه مدركا لمجريات الحياة، أكثر من أولئك الذين تبدو عليهم سمات المعرفة، وربما جَعْلُهُ بتلك الصورة الخَرِفَة ما هو إلا نتيجة لشدة إدراكه للوضع مما جعله لا يتحمل ذلك الوضع، فهرب من واقعه لعالم يجد فيه راحته أكثر.

[1]–العلوم الإنسانية: الشخصية في القصة، جميلة قسيمون، جامعة منتوري قسنطينة، عدد 13، 2000م، ص196.

الخـاتـمة

الخاتمة:

حاولت في هذه الدراسة الموسومة بعنوان **السجن في روايات الكيلاني "ليل وقضبان " أنموذجا**، بحث موضوع السجن في روايات الكيلاني، باعتباره ظاهرة من الظواهر التي اهتم بها الكيلاني في أعماله.

لقد شكلت رواية " ليل وقضبان" لنجيب الكيلاني رؤية أخرى للسِّجن والسَّجين، من خلال تصوير الكاتب لمشاكل السجون وما يعتري السجين فيها من ظلم ومهانة، وصور للقهر والتعذيب وسلب لحقوقه، وإلى الأوضاع الخانقة التي يمر بها السجين في محنته، ولقد حاولنا مناقشة أهم مظاهر السَّجين وتجليات السِّجن في أعماله. وقد احتل موضوع السجن حيزا كبيرا من أعماله الروائية، وهو السَّجين السياسي الذي قد اكتوى بنار العذاب والاغتراب في ظلمة الزنازين، تحت وطأة ظلم الجلادين، فكان يلوذ بذاته نحو ما يحقق ذاته وينسيه آلامه، وكان من جملة السَّاعين من أجل التغيير وتعميق الوعي لدى الإنسان من خلال أعماله الرواية.

وقد اشتمل البحث على أهم العناصر التي ارتأيناها مناسبة، وبما يتوافق مع موضوع البحث، ليشتمل البحث على ثلاثة فصول يتصدرها تمهيد.

ضمّنت التمهيد السجن مدخلا معجميا، ثم بعد ذلك تناولت السجن في حياة الكيلاني، والذي قد احتل جزءًا كبيرا من حياته كما رواياته، وذلك بسبب معايشته لتجربة السجن وهو السجين السياسي، لتترك هذه التجربة في نفسه الأثر الكبير، ليتجسد ذلك في أعماله الروائية.

تعرضنا في الفصل الأول لمظاهر السجين في أعمال الكيلاني، وقد تناولت فيه **السَّجين السياسي** في مجموعة من أعماله الروائية هي: **حكاية جاد الله، في الظلام، رجال وذئاب، عمر يظهر في القدس.**

ثم بعد ذلك تطرقت **للسجين العادي** من خلال نموذجين هما: **حارة اليهود، ملكة العنب.**

أما الفصل الثاني فخصصناه لدراسة تجليات السجن في رواية **ليل وقضبان،** وقد تناولنا فيه ملخص الرواية، ثم بعد ذلك السجن موضوعا لهذه الرواية، والتي يعتبر السجن فيها موضوعا رئيسيا، ثم بعد ذلك تطرقنا إلى السجناء في رواية "**ليل وقضبان**"، وأخيرا زبانية السجن متمثلين في السجَّان ومدير السجن، وقد حاولت من خلالهما الولوج إلى عالم السِّجن وما يعتري السَّجين فيه.

أما الفصل الثالث فقد اشتمل على دراسة جمالية في الرواية؛ من خلال دراسة بنية المكان والشخصيات في رواية " **ليل وفضبان**".

ليبقى بذلك حضور السجن في الرواية ليس مجرد صورة حسية يشعر بها المتلقي أثناء قراءته، بل هو حضور فاعل ومتفاعل يتجسد في كل عنصر من عناصر الرواية، نجده يتمثل في ذات السجين وجدران السجن تكتم على صدره؛ تصب الوحدة والشعور باليأس في قرارة نفسه، بل وفي نفس الجلاد الذي لا يجد راحته إلا في ممارساته الوحشية تنفيسا عما يعتري نفسه السقيمة.

ليتجسد السجن في نور الشمس المنبعث عبر قضبان نافذة السجن؛ ليسقط في السجن أسيرا.

فضلا عن ذلك نسجل النقاط التالية:

– اهتمام الكيلاني بمشاكل الإنسان ومحنته في السجون؛ بما فيه السُّجناء والسجان، وبما يلاقيه السَّجين من صنوف الظلم والمهانة والقهر المسلط عليه في عزلته، وعن زبانية العذاب المجردين من الدين ومن الضمير.

– مهما اختلفت محنة السَّجين تبقى مظاهر السَّجن مشتركة بين السجناء، بما تحمله من ظلم مكرس وإلغاء للذات، وواقع مرير يحياه هؤلاء السجناء خلف أسوار السجن.

– من أهم أسباب السَّجن التي تزيد من وطأة العذاب على السَّجين؛ أن يكون السجين سياسيا.

– لم يعد السجن مكانا لاعتقال المجرمين والمذنبين من أجل تأديبهم، إنما أصبح السجن مسلخا لكرامتهم وإنسانيتهم.

وأخيرا نقول إن نجيب الكيلاني يُعد من أبرز الكُتَّاب الذين تناولوا السجن في أدبهم، فهو ينظر إلى الرواية على أنها ذات وظيفة اجتماعية، وهو يسعى من خلالها إلى إحداث التغيير في المجتمع.

أمَّا آخرا، فنحن نعتذر عن أي تقصير قد بدر منا، وحسبنا الله أن نكون قد وُفقنا ولو بالجزء القليل في دراستنا هذه.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر:

- نجيب الكيلاني:

- تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1437هـ-2015م.
- حكاية جاد الله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2001،4م.
- رجال وذئاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط جديدة ومنقحة، 2001م.
- عمر يظهر في القدس،مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.
- في الظلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1994م.
- لمحات من حياتي، القسم الخامس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ-1994م.
- ليل وقضبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 2001م.
- المجتمع المريض، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401هـ-1981م.
- مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني، الجزء الأول، كتاب المختار، القاهرة، د.ط، 2006م.
- ملكة العنب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1461هـ-2000م.

2-المعاجم:

- بطرس البستاني:

- قطر المحيط، بيروت، د.ط، 1869م.

- جبران مسعود:

- الرائد، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، طبعة 7، آذار/مارس 1992م.

- رينهارت دوزي:

- تكملة المعاجم العربية، تر. محمد سليم النعيمي، دار الرشيد، العراق، ج6، د.ت.

-علي ابن إسماعيل بن سيده:

- المحكم المحيط الأعظم في اللغة، تح. محمد علي النجار، ج7، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط1، 1393هـ-1973م.

- أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني:

- المفردات في غريب القرآن، تح/ وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 502هـ، كتاب السين.

- مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث:

- معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج1، مصر، ط. منقحة، 1989م.

- ابن منظور:

-لسان العرب، دار المعارف، تح نخبة من العاملين بدار المعارف، القاهرة، مج.3، د. ت.

3- المراجع:

- حسن بحراوي:

-بنية الشكل الروائي (الفضاء-الزمن-الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م.

- ربيع قيس:

- السجون في لبنان، تشريع وحقوق وتوصيات، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم 32، المكتبة الشرقية، بيروت، 2013م.

- سمر روحي الفيصل:

-الرواية العربية البناء والرؤيا -مقاربات نقدية-، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

- سيزا قاسم:

- بناء الرواية دراسة مقارنة في (ثلاثية) مجيب محفوظ، سلسلة إبداع المرأة، مكتبة الأسرة، 2004م.

- **عبد الله بن صالح العريني:**

- الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية، إركنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط2، 1425هـ/2005م.

- **عبد الملك مرتاض:**

- في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، 1998م.

- **عبد الوهاب مصطفى ضاهر:**

-عمارة السجون في الإسلام، الأبحاث التمهيدية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت-لبنان، 2014م.

4-الرسائل الجامعية:

- **بوراس منصور:**

-البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار الروائية: الطموح- البحث عن الوجه الآخر- زمن القلب-مقاربة بنيوية، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة فروحات عباس سطيف، 2010م.

- **خنساء الجاجي:**

- شخصيات نجيب الكيلاني، دراسة وصفية تحليلية، جامعة بشاور، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، 1428هـ/2007م.

- **علي محدادي:**

– الاتجاه الإنساني في روايات نجيب الكيلاني، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، 2013–2014م.

– أبو غدة حسن:

– أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام، رسالة دكتورا، مكتبة المنارة، الكويت، ط1، 1987م.

– هادي شعلان محمد البطحاوي:

– رواية السجن في العراق، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة بابل، 2002م.

– وجدان يعكوب محمود:

–الزمان والمكان في روايات نجيب الكيلاني، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها تخصص أدب حديث، الجامعة العراقية، 2011.

5–المجلات والدوريات:

– الأدب الإسلامي:

– عدد خاص عن الدكتور نجيب الكيلاني رائد القصة الإسلامية، السنة الثالثة، العددان 9–10، فصلية، رابطة الإسلام العالمية، بيروت، ديسمبر 1995م–أبريل 1996م.

– بحوث في اللغة العربية وآدابها:

– المضامين الاجتماعية في رواية ليل وقضبان لنجيب الكيلاني، محمد مهدي سمتي/ سمانة نقوي، نصف سنوية، جامعة أصفهان، العدد 7، خريف وشتاء 1391 هـ.ش/ 1433–1434 هـ.ق.

–عبد الرحيم حمدا حمدان:

– بناء الشخصية الرتيبة في رواية "عمر يظهر في القدس" للروائي "نجيب الكيلاني"، بحث مقدم للمؤتمر الخامس لكلية الآداب، القدس تاريخا وثقافة، الجامعة الإسلامية بغزة، 2001م.

-عبد الرزاق علَّا:

- جمالية الفضاء المكاني في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي " للطاهر وطار"، جامعة الوادي، العدد5، 2013م.

-العلوم الإنسانية:

- الشخصية في القصة، جميلة قسيمون، جامعة منتوري قسنطينة، عدد 13، 2000م.

- المشكاة:

- نجيب الكيلاني أديبا وناقدا وإنسانا، العدد23، السنة6، مجلة فصلية، 1996م.

ملخص البحث:

موضوع هذه الدراسة هو السجن في روايات الكيلاني "ليل وقضبان" أنموذجا، بحيث تهدف هذه الدراسة إلى رصد أهم مظاهر السجن في أعمال الكيلاني، والوقوف على ظاهرة أصبحت متفشية خاصة في الدول العربية، وذلك كحتمية للموجة الاستعمارية التي مرت بها ولازالت، أو كحتمية لظروف سياسية أو اجتماعية وغيرها من الأسباب التي أتينا على ذكرها في سياق بحثنا.

تبحث هذه الدراسة إذا السجن في روايات الكيلاني " ليل وقضبان" أنموذجا، وقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة فصول يتصدرها تمهيد.

يحتوي التمهيد على عنصرين: وقد عنونته بـ السجن والكيلاني؛ يهتم العنصر الأول بالسجن مدخلا معجميا، أما الثاني فيهتم بالسجن في حياة الكيلاني.

وقد جاء الفصل الأول بعنوان: مظاهر السجين في أعمال الكيلاني، تناولت فيه ثلاثة عناصر؛ يهتم العنصر الأول بالسجين السياسي في مجموعة من أعمال الكيلاني **(حكاية جاد الله، في الظلام، رجال وذئاب، عمر يظهر في القدس)**، أما العنصر الثاني فيهتم بالسجين العادي وذلك في رواية **(حارة اليهود، ملكة العنب)**، أما العنصر الثالث فقد اهتم بالسجانين.

أما الفصل الثاني فيقف عند تجليات السجن في رواية **ليل وقضبان**، وقد تناولت فيه ثلاثة عناصر: العنصر الأول يتناول موضوع السجن والرواية، أما العنصر الثاني فيهتم بالسجناء في الرواية، أما العنصر الأخير فيتناول طاقم السجن من سجان ومدير السجن.

ويأتي الفصل الثالث على دراسة الرواية جماليا، وقد خصصناه لدراسة المكان والشخصيات في الرواية.

وتأتي الخاتمة على أهم النتائج التي خلصت إليها في الدراسة.

Abstract:.

The subject in this study is the prison in AL-KILANI novels night and bars as a model. This study aims to monitor the most important aspects of the prison in KILINI'S works and standing on a phenomenon became rampant especially in the Arabic word, this is due to imperative of the colonial wave that has passed and still, or as inevitable for political or social circumstances and other reasons that we have mentioned in the context of our research.

This study is focused on the prison in KILINIS novels " NIGHT AND BARS " as a model, it is devised to three chapter start with introduction about the research.

The introduction contains two parts: named as the prison and KILAINIS

The first part concerns the prison as a dictionary gate. And the other one concerns the prison in KILAINIS life. The first chapter in named as The Prisoner's Appearance in the Works of the KILAINI, it contains three parts.

The first part concerns on the political prisoner in KILAINI'S work groups (THE HISTORY OF DJAD ELLAH, IN THE DARK, MANS AND WOLFS, OMAR APPEAR THE KODS). The second part concerns about the normal prisoner in all his novels (THE JEWISH QUARTER, QUEEN OF GRAPES). The last part was concerned on the prisoners only.

The second chapter standing on the manifestations of prison night and bars novel, it talks about three elements: the first element is talking about the prison and the novel subject. And the second element is concerned on the prisoner on the novel, and the last element is talking about the prisoner crew like the jailer and the prison director.

The third chapter is taking in considering the study on the novel aesthetically, and we specify the study on the place and the characters in the novel.

Finely the conclusion focused on the most important findings of the study.